

فؤاد مرسى

شباك مظلم فى بنائة جانبية



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

326

أصوات أدبية



شباك مظلم في بناية جانبية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة

أصوات أدبية

تعنى بنشر الإبداعات المصرية

رئيس مجلس الإدارة

أنس الضحى

أمين عام النشر

محمد السيد عبد

الإشراف العام

فكري النقاش

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير

د. عبد المنعم تليمة

مديرة التحرير

السحر سامي

مدير التحرير التنفيذي

صابحى موسى

* شباك مظلّم في بناية جانبية

* رواية : فؤاد مرسى

* (326)

* موتيفة الغلاف : عمر جهان

* التدقيق اللغوى : عادل سميح

* الطبعة الأولى : أغسطس ٢٠٠٢

* رقم الإيداع : ١٦١٥٦ / ٢٠٠٢

* المراسلات : باسم مدير التحرير على

العنوان التالى :

١٦ ش أمين سامى - قصر العينى القاهرة -

رقم بريدى : ١١٥٦١

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : ٢٩٠٤٠٩٦

شباك مظلم فى بناية جانبية

فؤاد مرسى



326

قصص

أصوات أدبية



إهداء

إلى أمى

والقابضين على جمرة المروءة

كعادته منذ سنوات عشر،
يطل برأسه من الشباك ملهوقا،
يتفحص المارين،
وينظر في الساعة.

أكلَ هذه الأجساد المشدودة الطازجة كانت تحملها
عربات المترو؟ .

سقطت مملكة الفوشيا التي دخلتها كل نساء مصر،
الفتح الآن للـ ANTI FASHION ..

إنهن يتدافعن نحوي في سرعة شيطانية..
خيول تشعل نيران الأرض وأنا المبترد.

هكذا يحمل الصباح عادة على رصيف محطة مترو
الأنفاق مشروعاتي التي لا تتجاوز حافة الحلقة، فهل
تفلح ندوات المراكز الإستراتيجية في الحد من ظاهرة
الزواج العرفي بين الشباب الجامعي؟

كان يأتيني والنهار استحال إلى غيمة من رماد تهيمن
على رءوس الصائمين، نهرع إلى شارعها وحلوقنا
المشقة من العطش تعب من حكايات عن بنت بصفيرة
تتدلى خلف ظهرها، حتى تمسك بلحمة قلبه وتشكل في
الحلم بالأنثى.

نمشي حتى منتصف الشارع، حيث ترسو بناية جانبية
يفصلها عن الشارع مبنى قصير، تسقط من فوقه
نظراتها؛ فيضغط بكفه المعزوق على كفي حتى يكاد

يذوب.. إنه نفسه كان يتلاشى وهو يتلقى شذى سلام
حيي، مثلما يتلقى الصائمون نفثات الصفا.

لا بد في النهاية من أن أستقل أول مترو قادم، أبحث
بين راكباته عن بنت لها مذاق فتاة صديقي.. أبدا لن
أجلس مرة أخرى لصق امرأة بدينة، تراحمني في المقعد
وتضغط بشحمها على صدري، فيتبدد مني عطر
الممشوقات المستلبة لتوي.

جفنان يعاركهما نوم لزج، على حافتيهما بقايا من
كحل، وعلى الشفتين بقع باهتة من صبغة شفاه نحاسية،
فبدتا مثل أرض يباب، رغم محاولات لسانها في ريهما
بلعاب يقتنص من فم جاف، في مقدمته أسنان بنية
الفواصل، ربما من أثر دخان السجائر التي شربتها طيلة
الليلة السابقة.

إنها تشعر بالسكر:

ولا تعرف بعد ماذا تقول إذا سألتها أمها أين كانت
بالأمس.

فقط.. قال لها الذي معها: قولي كنت مع ولد فتى،
وكنت فتية.

وكانت عيناها المحمرتان مفتوحتين على اتساعهما؛
فبدا محيطهما مرعبًا، مملوءًا برغبة جارفة في مزيد من
جريان الدم بهما، وكانا واقفين عن يميني.. هي تقسم
مؤخرتها بالعرض حافة ظهر الكرسي، وهو يبسارها
ملتصق.

(فيالخيبتك وأنت تقلب بين الفضائيات عن امرأة
مكشوفة الجسد أو مشهد ملتهب، فالحلم صار أغنية تبدأ
من لثم انفراجة بين الرقبة والكتف، مرورًا باستدارات
وانثناءات وانسيابات، حتى ريلة الساقين.. يا عبد المجيد.
الحلم صار بنتًا على قمة بلورتي صدرها ترسو وردة
الوقت، وأنت الملدوغ بالعيب واللا يصح وعشرة أرفف
مملوءة بتاريخ الإنسانية، "وسيدة الدار صامته، فضحتها
مشاكلة ادعتها بهتانًا، فأقامت ودها مع قائمة منقولات
سودتها أصابع خبيرة بتاريخ النذالة، بعرض صفحتي
فلوسكاب"، فقلت: للمرأة مملكتها.

"والمرأة شافتك مهيضًا.

الشارع قاتلك..

ضجيج همجي..

وANTI FASHION.

دم ينضح من جلدك، وجذوة من بقايا تماسك قديم
تترمد، ومدير الترويج بشركة كوكاكولا العالمية يقول:
إن عدونا ليس البيبسي، عدونا الحقيقي هو مشروب
الشاي في الهند وسيلان.

ولأنك لم تكن أبدًا خنجرًا مغروسًا في قلب الحياة التي
تكره أمثالك؛ فتحولت إلى دمة من دمعات برتولد
بريخت.

شافتك المرأة فدلقت إلى نفسها، تاركة أمامك أطباق
الجبين والزيتون والحلاوة الطحينية، ولم تكن بك رغبة
سوى في كوب شاي ورغيف ساخن).

نزل الولد ذو العينين الملتهبتين، والذي لم تعرف
صاحبه ليلية أمس أن اسمه أشرف إلا في محطة الملك
الصالح، وبقيت هي تعالج الوقت بعينين نصف
مفتوحتين، وبين الحين والآخر تسوي فتحة البلوزة
الشيفون البيضاء عند نهر صدرها، ربما كانت تعتقد
أنني أعريها بعيني، لكنني كنت ألثم بنتا ركبت من
محطة الزهراء ووقفت بجوارها، تحتضن إلى صدرها
أجندة محاضرات.

.. متوسطة الطول.

.. ترتدي طاقمًا من بلوزة وجيب سوداوين يؤطران
ببياض ساقين لامعين.

.. في عينيها حزن خفيف يخط في صدري.
هذه بنت لا تملك حياها إلا أن تأخذها إلى صدرك
وتمسك شعرها، وتجعلها تساقط دمعها على قميصك،
فصديقي ترك فتاته لأسباب عميقة جدًا، ولكن شباكها في
البنية الجانبية بضوئه الأحمر الخافت ظل يملؤنا ببهجة
المستحيل، وضميرتها بقيت تعارك الأحلام.

— اسمي دعاء.

— عمري عشرون عامًا.

— أكره كلية التجارة.

— لم أعد أحب الناس مطلقًا.

— خطيبي عمره ثمانية وعشرون ويقول إنك أكبر

مني.

— أنتم جيل محظوظ.

— كم عمرك؟.

* خمسة وثلاثون.

— تبدو صغيراً.

* حقاً؟!.

نزلت دعاء في دار السلام وعاودتني حكاية الأضواء
الملونة، التي كانت تزين الكوشة.
والمعازيم يصفقون،
يزغردون،
وزجاجات البيبسي تدور،
والساعة تقفز إلى منتصف الليل،
والكوشة ليس بها أحد غير المغني المتواضع، الذي
يتنقل بين الكرسيين المذهبين، يتمنى للعروسين أجمل
الليالي.

نزلت دعاء في دار السلام.
وعبد المجيد رسلان مثلنا جميعاً.. سافر.
.. ومثلنا أثت شقة.

.. صار زوجاً وديعاً، يشتري لامراته الهدايا في
المناسبات السعيدة، ويذهب بأسرته إلى المصيف كل
عام.

.. اجتماعي

.. له ولد وبنت

.. عادل بين أسرته وأسرة زوجته.

.. مشكلته الوحيدة أن العالم لم يعد صادقاً بما يكفي
وأن البنات في الشارع أصبحن أكثر إثارة من زوجته،
حتى وهى فى قمصان النوم، التي أمسى يسميها
كلاسيكية

.. مشكلته الوحيدة أنه صار يهرع إلى عاداته القديمة،
يستجلب في الظلام بأصابع مرتعشة نساء يتقن فنون
الحياة.

يا الله.

أمن بعد:

ورا كل شباك ألف عين مفتوحين

وأنا وأنت ماشيين يا غرامي الحزين

لو التصقنا نموت بضربة حجر

ولو افترقنا نموت متحسرين*

أبعد كل هذا الوقت تبكيك قصيدة الأبنودي "يامنه"،

وتقص منها:

إذا جاك الموت يا وليدي

موت على طول

بل وتحرق أطرافها وتثبتها في برواز بإطار أسود.

نزلت دعاء في دار السلام

وتزوجت فتاة صديقي.

صار رمضان يأتي بلا تجوال قبل الإفطار.

أمسى شباك غرفتها مظلمًا.

أمسى شعرها بلا ضفيرة.

أمست كلما رأيتي خبات وجهها.

وكلما رأيته قلت: ياه.

1986

٢٢ - شباك مظلم فى بناية جانبية

هاج بطني.

انتابني شعور طاغ بالقيء بمجرد أن دخلت من باب
الشقة.

رائحة مكتومة، خليط من أنفاس نوم، ورطوبة
حوائط، ورائحة عرق جاف.

كان البيت غارقاً في الظلام، رغم الظهيرة. أضأت
نور الصالة، هرعت إلى شباك غرفة الجلوس، دفعته
بغضب، وحططت على الكنبه البلادي وأنا ألهث.

رفعت غطاء الحلة الموضوعة فوق البوتاجاز، كان
بها ما يكفي لملء طبق كشرى، الصلصة والتقليه في
فرن البوتاجاز، أشعلت النار واتجهت إلى الحمام، كان
بابه ثقيلاً وأنا أدفعه، كأن أحداً يمنعه في الداخل، أخذت
أزحزحه ببطء والخوف من مواجهه المجهول يفرم
لحمي.

الفرجة التي باح بها الباب إثر زحزحتي أظهرت
قدمي أُمي مفرودتين على الأرض، أسفل الحوض،
وظهرها مرتكن إلى الحائط، بينما رأسها مائل على كتفها

الأيمن، أحسست أنه الموت. رأيت الفقد والضياع مائتين
أمامي.

انحنيت عليها مسرعًا، مزرت أصابعي أمام أنفها،
متحسسا زفيرها. هم ثقيل فرض نفسه ورحل في لحظة.
جرجرتها إلى خارج الحمام، أذنت في أذنها اليمنى،
ارتعش وجهها عند إقامة الصلاة، وأنت خفيفًا.

بعد درجات أربع من مدخل البيت،
في الردهة، تجلس جدتي، تستقبل
بيمينها الداخل من البوابة، وجهها
يتعاند على باب الشقة وبجوارها
مقشة بلح لدفع ابن عرس، وأمامها
كومة من أعواد الملوخية.

نظرت في عيني مباشرة، وقالت:

— رحت عندكم؟

جلست إلى جوارها، على حافة
البلاط، مدلياً قدمي على الدرجات
الحجرية المتآكلة، التي تساوى أولها
بسطح الشارع، بعد سفلتته.

— آجيب لك تاكل.

وتنهدت وهي تستند على كتفي
لتنهض:

— ما هي بس لو أمك تبطل حزن!

وغابت في الداخل.

حامد أحمد

قابله في الصباح.. كان يجلس عن يميني مباشرة،
على سطح المائدة التي يجلس إليها كتاب صغير، ضخم،

باللغة الإنجليزية، وبجواره كوب ماء نصف ممتلئ.
بامتعاض، وضعت كوب القهوة واستدررت لعابي؛
لأزيل ميوعة خلفها البنّ غير الناضج من جوانب فمي.
غيرت جلستي قليلاً، أصبحت في مواجهة القادمين
من أول الشارع، ونظرت في الساعة.
الوقت بكر، وأجساد الطلبة تختلط بأجساد الموظفين
والعمال الذاهيين إلى أشغالهم، وعيناى لم تلمحاً بعد
واحداً من الأصدقاء.
تعبتُ من التحقيق. نظرتُ إلى كتابه، محاولاً
استكشاف عنوانه، بصعوبة قرأت: تشارلز ديكنز.
قال:

— رواية الأوقات العصيبة.

وقال إنه يميل إلى الأدب الفرنسي أكثر، لكنه يقرؤه
في ترجمته الإنجليزية، وإن كان هذا يفقده حساسية اللفظ
الفرنسي، وقال إن اسمه حامد أحمد.

كان واضحاً أنه ضليع في الإنجليزية، التي لم أستطع
إجادتها. أبداً، رغم محاولاتي المتكررة، مضت نصف
ساعة وهو يتكلم بسرعة مذهشة وأحاسيس مستتفرة،
حتى دقت التاسعة. قمت لأدفع ثمن ما شريت، هبّ

واقفاً وسبقني إلى العامل، رأيتَه يشير نحوي وهو يتحدث معه، فأسرعتُ إليهما.. قابلني في منتصف المسافة، كان قد دفع الثمن لي وله، أبديتُ حرجاً، اندهش وتحدث وكأن بيننا أصرة راسخة، ورافقني في اجتياز المسافة من المقهى إلى الكلية.

كانت الكراسي في كافيتريا الكلية مرصوفة بعناية حول الترابيزات، البوفيه على يسار الداخل مزدحماً بعلب البسكويت والشيكولاتة والسندوتشات، وأبخرة الماء المغلي تتصاعد في الفضاء، ولا أحد.

اتجهت إلى مكاني، على السور القصير المتعادم مع مبنى المدرجات، عيناى على بوابة الكلية، أتفحص الوجوه الجديدة، وظهري للشمس.

رأني صادق، فسألني عنها، بعدها رأيتَه يقف معها. كان جسدها قد امتلأ قليلاً، فبان قصرها، أخرجت دفتر اشتراكات الأسرة - شباب المستقبل - وأخذت أحرر لحامد قسيمة بعد ما أبدى رغبته فى الانضمام إلينا، توقفاً أمامنا وأنا أكتب السطر الأخير.. وضعتُ العشرة جنيهاً التي أعطانيها حامد في منتصف الدفتر واستقيمت مرحباً بحنان، داعبتي بنكاتهما كالعادة، بينما فرت أصابع

صادق في الدفتر، وضع العشرة جنيهاً في جيبه خلسة،
لمحه حامد، فطالبه بالباقي، بعد ابتسامه ساخرة، انفجرت
حنان ضاحكة ورحبت بحامد عضواً في الأسرة.

(كائن آخر غير مريح)

قالها حامد بصوت هامس، كأنما يحدث نفسه، وتنهد.
نظرت في وجهه وتجهمت، ثم واصلتُ تحديقي في
الوجوه.

كان الأصْدقاء يمرون علىّ، نتعانق، نتبادل حوارًا
سريعًا، ثم يمضون إلى الكافيتريا، إلا عبد المجيد الذي
بقي معي حتى جاءت سعاد بصفيرة مدلاة على كتفها
الأيمن، وعلى الأيسر حقيبة يد من الحبال المجدولة،
ترتدى جيباً طويلاً تتلامس حافته مع كورنيش الجورب
القصير، الذي ارتدته على حذاء من القماش البمبي
الكاروهات..

الطاقم كله جعلها أشبه بتلميذة صغيرة وليست طالبة
في البكالوريوس. كان عبد المجيد فرحاً بقدمها، إلى حد
أنه كاد يقبلها، أثنى كثيراً على هيئتها، وانتشيت، حتى
رأيت كفيها ترتعشان، شبكت أصابع يديها، وراحت
تفركهم، وكتفاها تتضامان.

اقترب من أذنها، وهمس: بحبك، فردت عليه بحركة
من شفتيها.

انصرفا، فأحسست بالزهق وتركت المكان كله.

في مواجهة الداخل تجويف مستطيل
في الحائط، بداخله صورة للكعبة
تحيطها مياه المطر، والطائفون حولها
تبلغ المياه أكتافهم، وأيديهم
مرفوعة إلى أعلى: خشوع بليغ
يشع من وجوههم المتضرعة.. رقائق
ألواح خشبية رقيقة تحيط جوانب
التجويف، على حوافها يستقر لوح
زجاجي مصقول يحفظ الصورة من
الخلف، وحوله إطار من أعواد
الخشب الرفيعة، بارزة قليلاً عن
سطح الحائط ومحلاة بنقوش ذهبية
على شكل سنابل متصلة.

الصورة كانت لدى رجل سعودي من
أهالي الرياض، أثناء عمل جدي بها..
كانت تتوسط حائط مثبتة عليه أشياء
مختلفة: ضب محنط، جلد غزال
كامل، سيوف وخناجر.

وأسفل الحائط طاولة كبيرة فوقها:

رأى على شكل دولاب صغير،
مكواة تعمل بالفحم على شكل قارب،
أوان نحاسية.

كانت غرفة الرجل تشبه المتحف، بها
ما يثير الانتباه دائماً، لكن صورة
الكعبة والناس يطوفون هكذا وسط
المياه لم تكن تفارق عيني جدى،
وحين قرر العودة طلبها من الرجل،
الذي نظر إليها بإعزاز، ثم قال:
— سيبنى أدبر حالي.

وبعد أسبوع عاد إليه، كانت الصورة
لا تزال في مكانها، فنظر جدى إليه.
بشّ الرجل في وجهه وقام إلى دولاب
صغير في زاوية من الغرفة، أخرج
منه لفافة ورقية مربوطة بشريط من
المنتصف، وناولها لجدى، فتحها،
فالتمعت أمامه الصورة نفسها وبذات
الحجم تقريباً.

دخلت من الباب، فرأيتها.

كم من الوقت مضى وأنا واقف هكذا
أحملك فيها، وخيوط العرق تسيل من
مفرق شعري، تجرى على جانبي
وجهي وتتقاطر، فتلامس قدمي.

جريتُ نحو غرفة جدتي، كانت تصلي، انتظرت حتى
سلمت وأخبرتها، ولم أنتظر لتبدل ملابسها لتأتي معي.
سبقتها إلى هناك.

لم تكن عينا خالتي منتفختين، ولا ظلال البكاء حوافهما
بهالات بنية، ولا عفرت ملابسها من تمرغ في التراب،
وقفت أمامها ولم ترني، حدثتها ولم تسمعني، شددت على
كفها وكانت قطعة رخوة، انكمشت داخل قبضتي، ولما
تركتها انزلقت سريعا وتأرجحت في الفراغ قبل أن
تلتصق مرة أخرى بحافة الكرسي.

وكنيت أحيانا أقف أمامه ولا يراني، أنقر على كتفه
بإصبعي ولا يتحنح فأصرخ.

— عماد، هل تسمعني.. عماد..

(من فوق. سريرك أو من انحشارك داخل الكرسي أو
من أي مكان فوق الأرض، ترى كأنك تتطلق في حركة

عمودية إلى أعلى، حتى تفارق قمم الأبنية، فتميل إلى
الأمام، شاقاً الفضاء باتجاه غير محدد بلا أجنحة أو أذرع
ترفرف، تغوص ملامساً - بأصابع كأنها ليست
كأصابعك - ذوابات الأشجار وسنام المآذن والقباب،
متحسناً وجه القمر الحبيب، ماراً بعرض النهر، مستقراً
في النهاية على شاطئه الغربي بجوارك الكيس القماش
الكاكي، يصطخب بداخله السمك الحي الذي اشتبك
بسنارتك، والذي تطلق سراحه إلى النهر حين تقرر أن
تعود.

مبتسماً تنظر حواليك فتراني، ترحب بي وتسالني عن
أحوالي، ثم تؤكد من جديد أنك لا تعرف بصدق إن كان
ما تراه حلمًا أم حقيقة!

تقول: إنك لا تشعر بشيء حينئذ غير أمنية تترقرق
في الداخل بأن تثبت الحياة عند تلك الصورة، وماء
الأماني ينحدر من منطقة تفتح في القلب فجأة، ليغسل كل
ما حولك ويجعل كل شيء بلون الصباح الأبيض
الطاهر).

تجيء خالتي بصينية الشاي، تجلس أمامه، كفها يتكئ
يميناً على الملف المليء بتقارير الأطباء، وعيناها

المفعمتان بالأسئلة تلفان وجهه وهو يتحدث.. لا يتوقف
إلا عندما تظهر طفلة الأخيرة واقفة عند الباب، تشير
إليه، يدعوها للدخول، تهرع مباشرة إلى ساقيه،
تقتعدهما، تعلق ذراعيها برقبته، موسدة رأسها صدره،
لائمة موضع استرخائها، فيروح يقبل ما يبلغ شفثيه من
جسدها الصغير، يقهقه وهو يدغدغها تحت إبطيها وعند
جنبتيها وفي باطن قدميها وهي تنقلب فرحة، لا تحاول
الفرار من خشونة أصابعه.

وحين بدت ذات مرة ملتاعة من حكايا أخيها عن
العفاريت التي تتقمص صور الموتى وتطلع على الأحياء
ليلاً لتخيفهم، كان ثائرا وهي تنتفض بين ذراعيه، ولما
قرت فرائصها إثر تمرير كفه على جسمها وربته على
رقبتها.. استدعى الولد، أوسع له إحدى ساقيه وأجلسهما
متواجهين، محوطينا ظهريهما بذراعيه، متحدثا عن وداعة
الموتى وجمال الملائكة والحدود العينية، وإذا يخرجان
مبتسمين.. انطلق يردد ضاحكا وهو يحدق في خالتي:

ولدى نصحتك لما صوتي اتبج

ما تخافشي من جنى ولا من شبح

وإن هب فيك عفريت قتيل أسأله..

فأكملت زوجه بعيون دامعة:

ما دافعشي ليه عن نفسه يوم ما اندبح*

وفي صوت واحد قال:

عجبي..

ثم التفت إليّ، وقال:

— قل عجبي.

فقلت..

كان جميلا أن أقابله مرتين في ليلة واحدة.

في بيت جدتي لأمي كانت العائلة مجتمعة في غرفتها حول جسدها الفارع الذي سكن فجأة، كانت نائمة على ظهرها ورأسها إلى السقف وعيناها مفتوحتان، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تحدث لجدتي إغماءة طويلة، هو الذي نبهني لذلك وقال إنها حدثت مرات ثلاث من قبل وأنها بعد لحظات سوف تصحو وتشاكسنا، ثم تمنحنا دعواتها الطيبة كالعادة، غير أن الطبيب حين جاء قال:

32

— البقاء لله.

(صاتت نساء العائلة ووهنت قوى الأحياء منا وغيرك

* إحدى رباعيات الشاعر: صلاح جاهين

لم يتقدم نحوها، أسبلت عينيها وأدّرت جسدها الثقيل
وحدك، موجهاً رأسها إلى القبلة، بينما خالتي كانت
تتابعك وتجاهد في إخفاء دموعها عنك، التي انفتحت
كالجرح، أنت لم تر هذه الدموع أو ربما رأيته حين
صمتك المفاجئ ولجوتك إلى الإشارات بديلاً عن الكلام،
وقتئذ كثف انهماكها مصحوباً بنهات عالية، جعلت
الحاضرين ينشغلون بها عن الميتة، ولما سكنت هرولت
إليك وتشبّثت بك فابتسمت، وعبر الهاتف في المساء
التالي، بعد عودتك من لقاء الطبيب كان صوتها فرحاً،
وكنت فرحاً بخلاصك من احتمال الجراحة واستمرارك
في تناول العقاقير لمدة عام قادم فقط، قالت: إنك دخلت
ومعك عليه جاتوه ولعبة للبنات والولد، وحين طلبت أن
أهنيك كنت قد نمت فعزمت أن أهاثك صباحاً.. في
اللحظات الأولى من النهار التي تحبها).

واريناه التراب وعدت إلى زوجه، وقفت أمامها ولم
ترني، كلمتها ولم تسمعني، شددت على يدها وكانت
قطعة رخوة سائبة، فقبضت على كتفها صارخاً: خالتي..
خالتي

* *

محيط مربع، واسع، حوائطه الأربعة
تمنع تسرب الأصوات، حائط يشترك
مع الجيران وحائطان مع شقة الجدة،
في أحدهما باب طويل بضلفتين يؤدي
إلى الصالة، يواجه طريقة دورة المياه
مباشرة، إحدى الضلفتين لا تفتح أبداً،
مقفولة بترباسين سميكين من أسفل
وأعلى، بالحائط الرابع باب يفتح على
مدخل البيت وشباك يطل عليه، في
نهايته فتحة مستطيلة بعرض الشباك،
مغطاة بسلك ذي فتحات ضيقة تسرب
الهواء بالكاد.

بارتفاع متر من الأرض يبدأ الشباك
بقاعدة خشبية ضخمة، بارزة إلى
الأمام ومستديرة عند الجانبين، يطلق
عليها جدي كرسي الشباك، هو
الشباك الوحيد بالبيت الذي به هذا
الكرسي والذي يحتفظ خشبه -
المستخلص من شجرة جميز كاملة -

بلونه الأصلي، متجليًا من تحت طبقة
ورنيش موبيليا، زاهيًا بلمعة خفيفة
ونعومة مصقولة، والمرات التي أتى
فيها النقاش لدهان البيت حرص جدي
على ألا تطوله قطرة بوية، فكان
يغطيه بأوراق الصحف والملاءات
القديمة، ورغم أن الرطوبة أكلت
حوائط البيت من الخارج، حتى بان
الطوب، إلا أن هذه القاعدة تبدو دائمًا
جديدة، كحالها أول مرة.

في البداية كنت أضع الكرسي أمامها
وعلى سطحها كتبي، وأذاكر، أو
أجلس على سطحها ممددًا ساقيّ على
الكرسي، وعلى ركبتيّ كتابي، مستندًا
بظهري إلى الشباك. كان ذلك قبل أن
أشترى مكتب إيديال — مستعمل —
بأدراج تسع حاجاتي.

الآن.. جلستي المفضلة عليه. أفرش
فوقه مخدة السرير، ثانيًا ثلثها على

الحائط الجانبي للشباك وأمدد جسدي
إلا قليلا.

محمد قابيل

كان يقرأ، فينتشي.
يقرأ، فيجوب الشوارع.
يعيد قراءة: حبيبك إلى الأبد. سهام.
يتوقف عند حرف الهاء من اسمها وقد استبدلته بقلب
صغير، ويفكر.

ويحكي:

- نقطع الشوارع الجانبية، المظلمة، التي لا نتوقع أن
نقابل فيها من نعرفه، وإذا حدث نفترق بسرعة، على
يقين من موعد الغد، الذي لم يخلف أبداً.

يرتعش بدني والإشارات المتفق عليها تنفذ بدقة. نور

37 غرفة الصالون يتسرب من خصائص النافذة في البداية ثم

تنتقل حركة الإضاءة بين النوافذ المطلة على الشارع
بالتناوب، حتى ينطفئ النور كله، استعداداً لظهورها.

أسرعت نحوها، انعطفت يساراً، مشيت، حاذيتها عند

منتصف الشارع، تكلمنا ووجهانا إلى الأمام.

نزفتُ أشواقًا، وأشواقًا، قابلتها بصمت، صادفتنا
ماسورة مياه منفجرة، فاتجهنا إلى الرصيف، سبقتها،
واستدرت لأخذ بيدها، منعتها عني، فأبقيت كفى ممدودًا
لها، حطت أطراف أصابعها في راحتي بحذر، فقبضت
عليها، كانت راحتي ندية، وأصابعها دافئة وجافة.
صعدت إلى الرصيف، فانتشلت أصابعها مني، ومشت
ورائي هذه المرة، حتى بلغنا شارع الجيش، هناك..
مشينا متلاصقين.

بلغنا محطة القطار من الخلف، توقفت عند المدخل،
التقت عيناها بعيني، مدت يدها إليه وصافحتني، قائلة:
إن الحياة حتمًا ستدفع لي بواحدة غيرها، ربما أحبها
وأ تزوجها.. يوماً ما سترأها بصحبتني، أو تقابلني
مصادفة وتسالني: هل زوجتي جميلة أم أنها مازالت
الأجمل في عيني!

بدا محمد قابيل وهو ممدد على السرير مثل ميت،
تلف جسده بإحكام بطانية لا تظهر منه شيئاً إلا نتوءات
جسده، ولولا حركة بطنه أثر التنفس لكنت قد اعتقدت أنه
ميت فعلاً.

جلست على الكرسي الوحيد في الغرفة، وصعدت
خالته لتجلس إلى جواره مع أمه وجارتها، اللتين كانتا
قاعدتين عند رأسه، تقرأن عليه المعوذتين بصوت مرتفع
وتمسحان بكفيهما على رأسه المحشور بين طرف
الوسادة والحائط، ولما فرغت، اشتبكن الثلاثة في تناوب
الحسرة على شبابه.

كان الشباك مفتوحًا، تنفذ منه أصوات صاخبة لأطفال
يلعبون في الشارع ومطارق تعمل بعنف، والذباب يملأ
الغرفة.. يتكاثر عند جسده المسجي، أما عمته فكانت
بالصالة.

بعصية: طوح الغطاء عن جسده. قلب بصره بين
الجالسات، وهب مفزوعًا. نزل إلى الأرض، ثم مرق إلى
الحمام، ودهشتن تتعقبه، أحست الجارة حرجا
فاستأذنت، انطوى داخلي على ضحكة وخالته تلوى
شفتيها، بينما كنت جالسًا على طرف الكرسي، أهر ساقِيَّ
المتعامدتين بأطراف الأصابع على الأرض.

أثناء غيابه في الحمام حكّت لي أمه ما حدث:
استيقظ، فوجد نصف وجهه الأيمن عاجزًا عن
الحركة، وحين تكلم اكتشفوا أنه لا يستطيع الكلام

بوضوح، كان فمه معوجًا، حتى إن الماء والطعام تساقطا من جانب فمه الأيمن وهو يتناول فطوره، وعينه محمرة ودامعة، مفتوحة طول الوقت، لا يغلق لها جفن.

قال الطبيب: إنها لفحة برد تصيب العصب السابع بالشلل المؤقت، الذي يستغرق علاجه من أسبوع إلى ثلاثة، حسب الحالة النفسية، وقال: مرجوع إن شاء الله. عند تلفظها بكلمة "النفسية".. ارتبكت وتحسست خدي الأيمن، مباشرة.

ارتدى ملابسه بسرعة وخرجنا. أوصتني أمه همسًا ألا يتعرض لتيارات هواء باردة، في مروري بالصالة توقفت قليلًا أمام عمته التي طلبت مني أن أعرف ما به. لم يتكلم.. فقط.. قال نكتة، وضحكنا، وحين همّ بإلقاء الثانية تحسس جانب فمه وراح يدلكه بحركة دائرية، ثم أغلق جفنه الأيمن بأصابعه وفرك عينه، ولم يصدر عنه صوت بعد ذلك.

جُبنا الشوارع وكان قد طلب مني ألا نقف مع أحد.. سهرنا بغرفتي، شرب معي القهوة وقرأ مجموعة يوسف إدريس "بيت من لحم" وقرأت "أرخص ليال"، ثم أوصلته في نهاية المساء للبيت وعدت.

في اليوم التالي. ذهبت إليه ولم أجده، فجلست مع عمته "سيدة قابيل". حدثتها عن صادق ورفضه لرسم محمد السريالية، ذلك الرفض الذي كان يقابله محمد بسخرية شديدة، ثم يبدأ في رسم لوحة جديدة. نعم.. لا يصل منها معنى مباشر، لكنني قلت: علينا أن نفهم، أو على الأقل نحاول.

(لن أرسم مرة أخرى)

هكذا قرر محمد، بعد أن كثف صادق هجومه عليه في المرة الأخيرة، وقال له: أنت فنان فاشل، ولوحاتك لا تعبر عن شيء، إلا الخواء اللي جوالك.

ولم أحدثها عن سهام، التي كانت تستبدل حرف الهاء من اسمها بقلب صغير، كنت أرتاح للحديث مع "سيدة قابيل"، فتاة جاوزت الأربعين، بشلل أصابها في طفولتها وأنفقت على علاجه كل ميراثها من أرض أمها بقرية "مجول"، ولم تتحسن.

41

أتذكر الآن أنني لم أعرف بشللها إلا في نهاية العام الثاني من علاقتي بمحمد. كنت دائماً أراها جالسة على كنبة بلدي في الصلاة وأمامها ترابيزة بمفرش طويل يدارى ساقيها، وعلى الترابيزة دائماً باترونات لمفارش

بليسيه، كانت ماهرة. صنعت لمحمد وأخيه الأكبر طاقمي
سرير كاملين بالبليسيه على شكل وردة كبيرة تحيط
بأطرافها مجموعة من الورود الصغيرة المتعانقة.
كيف لم ألحظ ذلك من قبل.

لقد مضى وقت طويل وأنا أدخل هذا البيت، أجلس
معهما ونتبادل حوارات طويلة، أحكي لها عن سهام
ونجوى وأمي.

تضيق بي الدنيا، فأقتل أي شيء لأذهب إلى محمد
وأتمنى ألا أجده، لأجلس معها، تحكى لي عن طفولتها
بمجلول، ثم انتقلها إلى بنها بعد وفاة أمها، واجتهادها في
الدراسة ورغبتها في الحصول على الماجستير في علم
النفوس، وعن علاقاتها ببعض الناس الذين تجرى لهم
تحليلات ومعالجات نفسية مجانا وسراً.

ولم ألحظ أنها مشغولة أبداً.

المرّة التي عرفت فيها كنت ساهراً مع محمد، وحين
خرجنا من غرفته إلى الصالة، رأيتها أمامي، تتوكأ على
البوفيه القريب من طريقة دورة المياه، يداها مستندتان
على سطحه، وقدمها اليمنى مستريحة على الأرض،
واليسرى متعامدة عليها، بالكاد تلامسها بأطراف

أصابعها. رأتني، فابتسمت وأسرعت ترتكز بكوعها
على زجاج البوفيه، وهي تقاوم ثقل جسدها على قدمها
السليمة.

سألتني سيدة قابيل عما حدث في رحلة بور سعيد.
فوجئت بمعرفتها للحكاية، وقالت إنها تريد أن تعرف
منى.

لم أذهب معهم، لكنني عرفت أن صادق في رحلة
العودة قام بفصل الكهرباء عن العربات المخصصة
للرحلة. صرخت البنات في البداية، ثم هدأن، وقررن في
أماكن خائفات. كان مقدرا للأمر أن يمضي هكذا حتى
النهاية، فينهل العاشقون حتى يرتوون، لكن مفتش القطار
فضح الأمر بإصراره على عد المشتركين والتحقق من
شخصياتهم، وحين اقترب من المنتصف سلط الكشاف
فجأة على الثلث الأول من العربات، وهناك بانّت خيمة
سوداء تهتز، كان صادق وحنان تحتها، أدار المفتش
الكشاف عنهما، وبعد برهة رماه مرة ثانية فوجد الخيمة
قد اختفت وصديق يرافقه في التحقق من الكارنيهات.

توقف المفتش وأرسل طالبًا لاستدعاء زميل له، من

العربة المجاورة، وراحا يصلحان الكهرباء وسط تصفيق
الطلبة واشتراكهم في أداء أغنية لم تخلُ من التلميحات..
— قصدك باللي ع الترعة حود ع المالح؟.

— عرفتى منين!

قالت: إن أم زميلة لنا، حكّت لها ما جرى، وأن بعض
البنات كن ينوين تقديم شكوى لإدارة الكلية ضدنا، لولا
أن تلك الزميلة رأت أن الأمر سيطولنى من قريب أو
بعيد، فأقنعتهم بالعدول عنها، واكتفين بمقاطعة نشاط
الأسرة.

— مين البنت دى؟

— مش مهم.

ظل أمر تلك الفتاة يشغلني، رحت أبحث في وجوه
من أعرفهن عنها، حتى تعبت، فقررت نسيان الأمر
برمته، لكن التي لم أنسها أبداً كانت سيدة قابيل، وجلستها
الأثيرة.

والغرفة بابان،

باب من مدخل البيت مباشرة، والثاني
من داخل الشقة.

وضعها هكذا جعلها تنتمي إلى البيت
ولا تنتمي إليه في آن.

كانت قديماً، مشغولة بطاخم صالون
مذهب، تزوج فيها عمى الأوسط، قبل
عثوره على شقة، وبعد خروجه
شغلها عمى الأصغر، الذي حصل
فيها على الثانوية العامة وليسانس
الحقوق، بينهما سكنتها أسرة من
مهاجري السويس أيام حرب
الاستنزاف، كان راعيها يعمل
أسترجيا، أقامت جدتي علاقة طيبة
معهم، حتى إن الأسرتين كانتا
تشاركان في طببخ واحد، وكانت
جدتي تتمنى أن تصاهرهم لولا أن
عمى الأصغر لم يوافق على ابنتهم
الوحيدة، التي اكتفت بدبلوم التجارة،

ثم عادت الأسرة بكاملها إلى السويس
بعد أكتوبر 73 ولم نعد نعرف عنهم
شيئاً.

كنت قد نسيت.. حامد أحمد!

وجدته أمامي، وأنا جالس في مكاني، على السور
المقابل لمدخل الكلية، أحرق في البنات بسعادة، وأبحث
عن حبيبة.

ورافقتي منذ رأني.

قال إن حنان منذ أمس تدور بين الطلاب تجمع
إعانة لواحد من أعضاء الأسرة يمر بأزمة، وأنها جمعت
حتى الآن خمسين جنيهاً.

وقبل أن أفكر في الأمر، داهمني قائلاً:

— طبعاً دي حدوتة من تأليف صادق.

وأطرق لحظة ثم واصل:

— ليه ما يكنش باتفاق معاها.. جاز!

باغتني بما يرى، وغضبت لمداهمته لنا بهذه السرعة،

ثم قال إنه يبحث عن شقة، ليقيم فيها، وأن لديه موعداً

في المساء مع سمسار في بنها الجديدة، وأنه يفضل لو

كنت معه، ودعاني إلى الإفطار في الكافيتريا.

دخلت فوجدت ساهر حشيش.. أمامه على الترابيزة
علبة مارلبورو وأطباق مليئة بساندويتشات الجبن
الرومي واللانшон والقشدة بالمربي.

كان ممسكاً بديوان أمل دنقل "قصائد الغرفة رقم 8"،
يقرأ منه على فتاة امتلأت عيناها بالوله المفرط، وساقاه
تهتزبان بانتظام، فيحتك طرف حذاءه بطرف حذاءها .
وقفت وراءه، أستمع. حدجتي البنت باندهاش، بينما
الوله يذهب عن عينيها تدريجياً، أدار رأسه فرآني.
ابتسمت وأنا أنظر نحوها، واصل قراءته، فأنصرفنا
إلى مائدة في ركن بعيد.

قلت:

— تحب تسكن مع حد؟.

— مين؟.

— ساهر.

نظر إليه وقال:

— أنا مش أي جد يقبلني بسهولة.

تراجعت عن الفكرة على الفور؛ تجنباً لما يمكن أن
يحدث لو كنت طرفاً في معادلة لا أدرى أبعادها تماماً.

— شكلك رجعت عن الفكرة.

— سيبنى أسأله.

أخذ يضحك بجنون، حتى كدت أنفجر فيه، وقررت
أن أتخلص منه في أول مناسبة، فلن أطيق عليه صبراً،
ثم إنه لا حاجة بي لأصدقاء جدد، لدي منهم ما يكفي.
وحين تجاوزت الثالثة عصراً، قررت أن أعود إلى
البيت.

قال:

— مش جاى معاى للسمسار؟

— نسيت.

— لو ما لكش مزاج.. خليك.

— لا.. أبداً.

ورافقني إلى بيت أمي.

أدخلته إلى غرفة الجلوس، فتحت له التليفزيون،
ودخلت إلى غرفة أمي. استيقظت بمجرد أن أضأت
النور. سحبت من تحت مكدتها مظروفاً، تلقفته ملهوفاً،
وفتحته، كان بداخله خطاب من أختي، وبين طيات
الخطاب شيك بمائة دولار، باسمي. فرحت بالخطاب
وبما بداخله، وعزمت على صرف الشيك غداً، قبل
الكلية.

دخلت عليه، كان مشدودًا للتليفزيون. رحبت به، وكأنه لم يسمعني. للمرة الأولى أحرق في وجهه. عينان صغيرتان، غائرتان، في وجه صغير مستدير، لا يتناسب مع بدانته، وجه يوحى بالطيبة المفرطة في صمته، وحين يتحدث تشعر أنه مستثار وغازب.

التفت إلى، فواريت عيني، بعد ما تملكني التناول بما أصابني من يسر في وجوده، وقررت أن أمضي معه اليوم حتى نهايته.

كان البيت خاليًا مما يليق بضيافته كما خشيت، وما معي من نقود يكفي بالكاد طبق بلوبيف بالبيض أو ربع كيلو فسيخ، تلعثمت وأنا أستاذن منه، فعافاني وخرج معي، في الشارع خيرته، فأثر البولوبيف، وعند البقال دفع ثمن ما اشترينا خلسة، وأنا أطمئن على البيض في الكيس.

حين عدنا سألني إن كان أحد بالبيت غيرنا، فقلت: أمي، التي شاركتنا الغداء واحتفت به.

من بيت أمي إلى غرفتي في بيت
جدتي مسافة قصيرة، امتلأت بدهشة
"حامد" من وضعي هذا: أكل في بيت
وأعيش في آخر.

لم تسمح له تلك المسافة أن يواصل
فضوله، إذ وجد نفسه بسرعة أمام
بيت جدتي، ولم تكن بي رغبة في أن
يعرف عني غير القشور. ولأن جدي
لا يحب الغرباء، فقد أدخلته من الباب
المشرف على ردهة البيت، ورجوته
أن يتكلم بصوت خفيض حتى لا يعلم
بوجوده أحد، ولم يفعل طيلة وجوده
بالغرفة غير تقلب عينيه بين صورة
الكعبة في تجويفها المؤطر وبينى،
وتوقف تمامًا عن أسئلته، حتى صار
وجوده أثقل مما يحتمل، فتناومت،
حتى نمت بالفعل، وحين استيقظت لم
أجده.

بدأ صادق يخفى عني الأخبار، ولم يعد حتى يستقبلني
في شقة ساهر، التي كان يقيم بها طول الوقت، واكتفى
بلقاءي في الكلية.

كان يعد نفسه لرئاسة اتحاد الطلبة بالكلية، عرض
على أن أرشح نفسي لأمانة اللجنة الثقافية، فرفضت في
البداية لأن محمد قابيل كان ينوى الترشيح لنفس اللجنة،
أخبرني بهذا قبل بداية الدراسة، وحين فاتحته في الأمر
قال إنه تراجع عن الفكرة مطلقاً، ولم يعد يشغله شيء
غير الحصول على تقدير في البكالوريوس، فتقدمت
للترشيح، منافساً لأحمد الجبالي وسيد عبد المجيد،
ودعاني صادق لحضور جلسات الترتيب بشقة ساهر.

لم تكن تعجبني طريقته في إدارة الأمر، اختلفت معه
كثيراً، وفكرت في التنازل، لكن التزامي معه جعلني
أمضى حتى النهاية، دون أمل في نجاح، ودون
حماس كذلك، وحين استحكمت خلافاتنا عقد تحالفاً
سرياً مع سيد عبد المجيد وأحمد الجبالي في آن واحد،
وفي يوم الانتخابات لم أذهب إلى الكلية، إلا آخر النهار،
أثناء فرز الأصوات، قضيت اليوم كله برفقة حامد، الذي
استيقظ ليفتح لي ثم عاد إلى نومه.

كان يحشر رأسه بين وسادتين، والغرفة التي ينام بها
تعمُ الفوضى أرجاءها. أطباق بها بقايا من طعام على
مكتب مفروش بالغبار، وفي وسط الأطباق أباجورة.
كتب ملقاة على الأرض، وحذاء تحت السرير مباشرة،
وشماعة سقطت — بما عليها من ملابس — على صندوق
تليفزيون مغلق.

كان المطر يتساقط في الخارج خفيفاً، وثمة غمام
رقيق يسيطر على العالم.

أزاح الوسادة من فوق رأسه، وقال:

— تشرب شاي.

وذهب إلى المطبخ، أشعل البوتاجاز تحت البراد،
ودخل الحمام ومعه كتاب، غاب طويلاً، حتى سمعت
طققة البراد، فأسرعت إلى المطبخ، كان الماء قد تبخر
بالكامل، أطفأت البوتاجاز، وأمسكت البراد الذي احترقت
يده وألقيت به في الحوض. كانت رائحة البلاستيك
المحترق والنفايات الطافحة من سلة المهملات تخترقني،
أحسست بالدوار وبرغبة في القيء، أوقفتها بإحاطة فمي
بكفي وعدت إلى الغرفة.

وقفت أمام الشباك، أتنفس رائحة الليل في الخارج،

حتى جاء بالشاي. أغلق الشباك وجلس على السرير
مؤتزرًا بالبطانية، تخللني الإحساس بالبرد، فخلعت
حذائي وصعدت إلى السرير، واضعًا ساقيّ تحت
البطانية.

قلت:

— إنك مش رايح الكلية؟.

هز رأسه نافيًا، وقال:

— ابتسام مش رايحة!

ثم نظر إلى وقال:

— أنا وابتسام بنحب بعض.

وأردف محركاً السبابة والوسطى:

— من يومين.

اهتمامي بالانتخابات وخلافاتي مع صادق، شغلاني
عنه طيلة الأيام السابقة، لكن لم أكن أتصور أن يقيم
علاقة معها بهذه السرعة، تعرف إليها في حفل تعارف
الأسرة، التي انضمت إليها مؤخرًا عن طريق حنان.
وجهها نفيض بجمال أسر، تؤطره ابتسامة رقيقة في
العينين دائمتا، وصمت جذاب يوحي بقوة وصلابة،
أتساءل حين أراها بصحبة حنان: كيف تجتمعان؟!.

حنان فوضوية، تعيش بغير نسق يحدّها. الحياة بالنسبة لها لا تشكل أكثر من اللحظة التي تعيشها، تأكل بشراهة، تضحك بشراهة، ترغب في الأشياء بشراهة، حتى تشعر أنها ستموت إن لم تحقق لها ما تريد. أحيانا أشعر أن لا يقين لديها في شيء، حتى صادق نفسه. قالت لي ذات مرة:

— كان ممكن أحبك أنت مش لازم هو بالتحديد.
وحكت لي عن كثيرين أحببتهم، لكنها توقفت طويلا عند أول مرة أحببت فيها. كان زميلها في الابتدائي:
كان اسمه حسان، وشعره طويل وناعم، ويتراكم الزبد حول شدة والبتور تتناثر في وجهه.
وحنان شعرها طويل وناعم، وأما تضره لها كل صباح، وتجعل بعض خصيلاته مناسبة فوق الجبين.
فتبرز ضياء وجهها الأملس.

حسان اشترى قطعة عجوة بقرشين، وبياقي مصروفه
"قلم رصاص". حنان رأت حسان وهو يشير لها أثناء
الفسحة.. فتسللت من بين زملائها، ومشيت وراءه..
حسان وارب باب الفصل، واختبأ وراءه، وحين
دخلت حنان قال: (بخ)، فاصفر وجهها.. حسان أخذ

يضحك من حنان التي خافت وسقطت فوق الأرض.
حنان قالت وهي تنهذه بالبكاء: (أنا مخلصماك يا
حسان، ونقول لماما)، وتفلت في صدرها..
حسان فض السيلوفان عن قطعة العجوة، وألقمها فم
حنان، وقال (لسه مخلصمانى)..
الأولاد رأوا حنان وهي تقسم العجوة، وتضع نصفها
في فم حسان، وهي تقول (أنا مش ممكن أخاصمك
أبدًا)..
الأولاد التفوا حول حنان وحسان، وأخذوا يرددون في
صوت واحد منغم ومتمازج..
حسان شعره طويل وناعم.
حنان شعرها طويل وناعم.
إذن حسان يحب حنان وحنان تحب حسان.
حسان كان يقول كل ليلة لأمه وهو يندس في حضنها
تحت الغطاء: (أنا لما أتجوز وفاء مش هضربها زى بابا
ما بيضربك) وقبلها والنوم يتقلب جفنيه..
حكى لى هذه الحكاية وضحكت بشكل هيسيرى حتى
بكت.

قال حامد: إنه لم يكن يفكر في الحب حالياً، وإن هناك شيئاً واحداً يشغله.

— عارف.. مهم جداً أنجح السنة دي. حتفرق معاي كثير. دي أول سنه أعيشها باستقلال حقيقي، طول عمري أبويا راسم لي الخط اللي أمشي عليه، ولو خرجت تبقى الليلة سوده على وعلى البيت. أنا بالنسبة له الولد الكبير اللي بيحرب فيه سلطته ولو خرجت عن طوعه يبقى حاسس إن البيت كله فرّ من إيده، علشان كده كان دايماً يكسرنى. أنا من جوه بايظ، مش مترتب، محتاج حد يلمّنى، يمكن ده اللي شدنى لابتسام.. على فكرة إنت شخص منظم جداً. بس زىي. محتاج حدّ يحبك. ياخذك في حضنه ويلم راسك بين أيديه، حد يكون بيخاف عليك بجدّ.

إنت إيه رأيك؟ على فكرة هي بتحترمك جداً، بتقول إنك مختلف.

— بس إحنا مفيش بينا كلام.

— ابتسام لها دماغ، بتشوف بيها كويس، وأنا عندي ثقة فيها، إحنا مش متفقين قوى. بس فيه شيء غامض

واخذنا لبعض.

واتجه نحو الشباك، كان الزجاج مفروشاً ببخار الماء،
مسح دائرة في وسطه وألصق وجهه بالزجاج شديداً،
حتى تخيلته مرعباً لمن يراه من الخارج، كانت عيناه
مثبتتين على طفل في الطابق الأرضي من البناية
المقابلة، يجلس على حافة الشباك، مدلياً ساقيه إلى
الخارج وفرحاً بالمطر ويغنى له.

انتشى قلبي، فرحت أحلم بأن أمشي تحت المطر،
متأبطاً ذراع من أحبها، نمشي والناس يتفرجون علينا من
الشبابيك، ويبتسمون لي وأنا أحاول ضمها إليّ، وهي
تساعدني، أطوقها من خصرها وأرفعها عن الأرض،
أدور بها، ورأسها يتأرجح، فتتدافع قطرات الماء من
شعرها نحو وجهي، وأقبلها، أغوص بإصبعي في
خصلاتها السائبة المبلولة.

58

أعانق خدها بخدي ورأس كل منا مستريح على كتف
الآخر، حتى لا يكاد يفرق الرائي بيننا.

توقف المطر، أحسست برغبة في دخول السينما، أن
أجلس بين الناس، أشاهد العالم في الشاشة الكبيرة وأعيش

حواديتته، دون أن يراني أحد، مثلما يفعل "محمد قابيل"
كلمما اشتدت عليه الأزمات.. ترك كل شيء وذهب إلى
السينما يوم وفاة جدته، ليلة امتحان الإنجليزي في
الثانوية العامة، وكان يعود منها مرتاحًا.

غادرني حامد بمجرد استقراره في الكرسي، انفصل
عني نهائيًا، وغرس عينيه في الشاشة التي راحت تجرى
عليها حكاية سيدة توفى زوجها، تاركاً لها بنات ثلاث،
يقاومن طول الوقت السقوط، إلا الصغرى. تفاصيل
دقيقة عن حياة مَرَّة، قاحلة، يقاومها الفقراء بمرارة،
مشاهد موهلة في الإنسانية لفتى أخرس يعشق البنت
الوسطى ويتزوجها، بيوت غارقة في مياه المجارى في
ليلة عرس، وحياة تزيد الموسرين يسراء، ولا تمنح
المحتاجين ما يقتاتون به.

لمحت بكاءه في نهاية الفيلم وصمته في الشارع.

قابلتنا امرأة.. طلبت منا أن نساعدنا بشيء لتشتري
59 به علاجاً لطفلتها المصابة بسرطان الجلد. أخرج من
جيبه جنيهاً عشرة وطواها في يدها، فلاحقتنا بالدعاء،
بينما كان يسرع في خطوه ويبتعد عنها.

خلع نظارته، تأبطني، في الطريق اكتشفت أنه بدون

نظارة لا يرى. وأنه في يوم واحد يمكن أن ينفق كل ما
في جيبه ويبقى طول الشهر أعزل.
سألني فجأة:

— فيه حياه بالشكل ده.

ابتسمت ساخرًا، ورأيت أن أحكي له عن مسعود:

— في زيارتي الأخيرة له كان نائمًا على سرير من
جريد، في مدخل بيت رطب، معتم.

قال لي: (الصباح مرأتى قالت لي: البنت نفسها تاكل
لحمة، كانت أول مرة أرى آذان بقر مقطوعة، كانت
طويلة، منتصبه، أطرافها تطل من حواف كافة الميزان،
يغطيها شعر يتدرج لونه من "البيج" إلى البني، مكان
فصلها عن الرأس في لون قشرة الجرح المنكوء.)

وكانت يده مدلاة على الأرض، فمه يريق اللعاب على
خده، فتمتصه وسادة من بقايا قماش قديم.

— قل لي إزاي خرجت من المستشفى.

— دكتور ابن حلال قال لي موت في بيتك أحسن
من البهدلة.

وأكمل :

(أعطيت المرأة جنيهين، ثمن أربعة آذان وأعطتني

فوقهم قطعة فشنه، في الظهر كنت أنادى كالعادة، تحت
شبابيك البيوت: ألحم الشباشب البلاستيك).

رفعت رأسه بيسراي، وبيميناي ألقمته طعاما لفظه
على كفى، وسقط مكابدا غصة في حلقة.

بعد المغرب كان في مكانه، على رصيف محطة أول
شبرا، مستندا إلى عكازه، رأسه لا يثبت في اتجاه، فجأة
وبساق واحدة عرج إلى منتصف الطريق، ورفع عكازه
في وجه تاكسي كان متجها إلى نفق أحمد حلمي، ثم
أشار إلى سيدة تجار أمام التاكسيات، وعلى يدها طفلة:
الزمالك.. الزمالك.

هرولت السيدة إلى التاكسي، بينما كان قد انتقل إلى
جانبه الأيمن، فتح لها الباب. انزلت إلى داخله شاكرة
له.. فقط، ولم تفهم أن هذا هو عمله بالليل.

ضحكت من غفلى فجأة لأننا لم ننتبه إلى السلسلة
الذهبية التي كانت تتدلى من رقبة السيدة، التي استوقفتنا
وطلبت خمسة جنسيات ثمن دواء لطفلتها المصابة
بسرطان الجلد، ولأنني بعد ما تجاوزتها التفت ورائي،
فرأيته تنزلق ضاحكة بميوعة إلى داخل محل

الإكسسوارات الحريمي.

"لحم الشباشب البلاستيك"

كان صوت مسعود يثير حنيني لأيام لم يبق غير
رمادها، حين كنت أذهب مع أمي إلى سوق الإثنين،
وتسلمني إلى رجل يلحم الشباشب والأطباق البلاستيك
حتى تعود.

وكان ضوء الشارع بعد باب بيته يعمى، أما قدمي
فقد التصقتا بأرض رخوة، عارية من بلاط.
وكان مسعود نائما على سرير من جريد،
في مدخل بيت رطب، معتم.
جسم مستلب الحياة.
حكيت لحامد حتى صرخ في، وضع نظارته على
عينيه وتركني.

*

ظننت أنه أذان العشاء.

فتحت عيني، تنأى إلى حفيف أقدام
جدتي وهى ذاهبة إلى دورة المياه، ثم
بقبة الماء وهى تتوضأ.

دقت باب غرفتي وهى تتمم بالاستغفار
والدعاء لأولادها، وذهبت لتوقظ جدى،
فتبينت أنه الفجر.. تذكرت أننى نائم من
قبل عشية أمس، بعد أن تركنى حامد
فى الشارع ومضى مسرعاً، أو ربما
بعد أن خلفت "سهام" محمد قابيل، واقفاً
على المدخل الخلفى لمحطة القطار
ورحلت، لست أدري بالتحديد.

ولأول مرة لم أرافق جدى فى خروجه
الصباحى المبكر، حيث أفتح له الدكان،
ثم أمسك بزجاجة المياه وأرشها على
الرصيف، وأعيد ملأها من المطعم
المجاور بماء جديد، أحملها بيدى،
وبالأخرى صينية ألومنيوم عليها طبق
فول بالزيت الحار ورغيف وطبق سلطة

وبصلة صغيرة مشقوقة إلى أربع..
فطوره.

ادّعت وهو ينادى علىّ أنني متعب، ولم
أذهب لشراء الجريدة اليومية له.

غسلت وجهي، واتجهت إلى كرسي
الشباك.. وابور سبرتو. كنكة صغيرة،
وكوب بمقبض على شكل أذن مجوفة.
برطمانان زجاجيان صغيران. واحد
للبنّ والآخر للسكر.

شربت القهوة، وذهبت إليه في دكانه،
كان قد أفطر وجلس عاقدًا ذراعيه حول
صدره في ضيق، إذ لم تأت الجريدة.
لسم أجيد الأخبار عند بائع الصحف،
تُ

شيرين على

ح نغنى ودايما ح نغنى

ونبشر بالخير ونمنى

ونلف الدنيا الذواره

على صوت النغمة الهداره

وان جعنا شبعنا بتتقضى

ما نبيعش الكلمة بميت فضه

هوا احنا كده وحنفضل كده.

بدا عليها الاندهاش ونحن نردد وراء صديقنا المغنى

بحماس وبهجة، لعله - المغنى - لمح ذلك فى عينيها،

فراح يستحثها بإيماءات متكررة من رأسه كي تردد

معنا، فلم تتبس، وظلت تتابعنا فى صمت وتلملم، وحين

جاوز قلقها الحدود. وبدأت تهتم بمغادرتنا، غمرت ابتسام

لحامد، فلكر كتفى وأخذنى إلى خارج الكافيتريا، وقال إن

"شيرين" تعانى من ضيق حذائها، فهى من القاهرة 65

والمشوار طويل عليها.

نظرت فى عينيها، فرأيت الألم مستريحاً على وجهها،

بعدها وجدتنى فى قلب بنها، أبحث عن زجاجة سبرتو

أحمر.

بللت بالسبر تو جلد حذائها حتى لان تمامًا، ارتدته
وطلبت منها أن تروح وتجيء حتى يتمدد الجلد ويناسب
حجم قدميها. كنت أتأملها وهي تفعل ما طلبته منها
برضى، كطفلة مطيعة، وعندما ارتاحت قدمها تحولت
بسمتها الهادئة إلى ضحكة متفجرة، ممثلة بالحياة وكادت
تعانقنى وهي تصافحنى وتشد على يدي بامتنان ودفء.
أى إحساس ذلك الذى جعلنى أمشى معها من الكلية
إلى محطة القطار، سالكا بها طريقاً مهجوراً، وسط
غيطان الخس، الذى أعجبت بقلبه الأصفر المفتوح أمام
العالم دون وجل، فاشتريت اثنين وجلسنا على حافة قناة
رفيعة نأكله بأوراقه.

- لماذا كنت ضجرة ونحن نغنى، ولا أعتقد أن

الحذاء هو السبب؟

ابتسمت قائلة:

- ستغضب لو قلت لك.

- لن أغضب.

- أشعر أنكم لازلتم تؤمنون بالأحلام الكبرى، هكذا

كانت تشي بكم أغنياتكم.

- وما العيب فى هذا؟

- لم يعد الوقت محتملاً، وأخشى على قلوبكم من الهزيمة!

من أية نظرية تاريخية جاءت بكلامها، وما معنى أن يحاكمنى صادق وساهر وعبد المجيد ومحمد قابيل فى اليوم التالى على ما فعلته معها، وينبهوننى بلهجة سلطوية لأهمية أن أعرف ما يريد الآخرون منى وماذا سيضيف إليهم ما معى، على ألا أسمح لهم إلا بالقشور، وما يعتقدون فيه فى نفس الوقت بأنه الجوهر، أما أن أنحنى تحت قدمى فتاة أرستقراطية مثلها وأعالج حذاءها فهو أمر مشين لى ولعشيرتى، وبلهجة مسرحية يعرضون جريمتى للمداولة ويطلبون عليها التصويت.

أخذتهم الحماسة، فانبهرى كل منهم يشرح لى خطيئتى، وأنا ساكت، ليس فى داخلى غير: تبا لكم جميعاً، فى ستين داهية أنتم وأفكاركم إن كان فيها ما يحوش القلب عن رعدة حقيقية، أو ما يجعلنا نبخل بما نملك على محتاج.

في اليوم الرابع أفاقَت تماماً، حاولت
أن تَطأ الأرض بقدميها، ساعدناها،
لكن فشلت، فازداد حزننا. ارتكنت
إلى ظهر السرير، طلبت قطعة جبن
قريش ونصف رغيف.

طالعَتنا جميعاً، نطقَت باسم كل واحد
منا واضحاً، وابتسمت وهي ترفع
الشكر لله، وتدعو للغائبين بالستر.

ناولت أُمي جنيهاً خمسة، وقالت:
— اطبخوا لرجل البيت، فالיום.. يوم
عاشوراء.

وطبخوا.

وأمرت أبناءها أن يذهبوا، ويدخلوا
مستبشرين على بيوتهم.
وذهبوا.

69 وطلبت أن تستحم، وبعدها أحكي لها
حكاية.

خرج جدي إلى الصلاة، وضعت أُمي
الطشت في منتصف الغرفة والإبريق
المنحاس بجواره، وزنجة الماء فوق

النار.. رأيت أن أذهب لأشتري لها
الفندام الذى تحبه، وبالمرة أجهز
حكايتي.

بيد مطبقة على الفندام عدتُ سريعاً..
منعتني يد أمي عند باب الغرفة
المقفولة من الدخول، وارتكنت إلى
حائط الصالة باكية كل الراحلين.

كيف لم نكن نعلم أن اليوم هو يوم
عاشوراء إلا حين أفاقت جدتي من
غيبوبتها في بداية اليوم الرابع،
ودعت لنا بالستر، ثم رحلت، ليتبقى
بالبيت أنا وجدى فقط.

لم يعد حامد إلى بلدته في إجازة نصف السنة.

بقى بشقته، يشاهد التلفزيون ويقرأ بالإنجليزية.

أذهب إليه كل أصيل، فيصحبني إلى الشارع الذي
تسكن به ابتسام، حيث تكون واقفة خلف شباكها البعيد،
ويكون المساء قد حوانا بمعطفه. لم أرها أبداً، ولم أكن
متأكداً إن كانت هي التي تقف خلف الشباك حقيقة، أم

واحدة غيرها. لم أكن أرى غير شبح يقف خلف زجاج
مدهون باللون الأحمر الفاتح، وإضاءة خافتة في الخلف،
لا تفصح عن ملامح محددة لكائن لا يتحرك.

وحده كان يراها، ويؤكد لي أنها واقفة، فأصدق ما
دام هو يصدق.

حامد هو الذي قال لي، إن حنان كانت تقضى نهاية
كل أسبوع برفقة صادق في شقة ساهر، تزوجا في بداية
العام الدراسي وقررت ألا تذهب إلى أهلها ثانية قبل أن
تتجب طفلا، وعلى الورقة المكتوبة بينهما شهد عبد
المجيد وساهر، الذي ترك لهما الشقة لقضاء فترة
الإجازة، وعاد إلى بلدته، وبعد أسبوع عاد إليهما
وبحوزته تأشيرة سفر إلى السعودية، أرسلها له عمه
الذي كان يرتب لتزويج ساهر بابنته الوحيدة.

عشرة أيام انقضت، ولم تعد حنان إلى أسرتها.

اتصل أبوها بالمدينة الجامعية، وعلم أنها أخذت
حقائبها قبل بدء الإجازة بيومين.

بحث في شقوق الأرض، وبين الموضع وتاليه يتصل
بالبيت الذي أنبأه في صبيحة اليوم العاشر بوصولها.
وكان ساهر قد أنهى إجراءات سفره،

خطب ابنه عمه.

قدم اعتذاراً عن حضور امتحان هذا العام، وطلب من صادق وحنان إخلاء الشقة لتسليمها إلى صاحب البيت. ولم تُرَ حنان في الكلية إلا أيام الامتحانات، بصحبتهما أبوها، وكان قد ذهب إلى صادق في قريته بعد ما تأكد من خلو بطنها من أية بذرة له.

نزل في أول البلدة. سأل عنه. مشى فوق مدقّ ترابي طويل، في نهايته سأل عن خالة "سر السعادة"، سيدة طاعنة، تجلس أمام مشنة جرجير وفجل وبقدونس وكرات، تنادى على "الورور". وقف يحدق فيها، قبل أن يسألها عن ابنها. هبت مذعورة، بعد أن تفلت في عباها وعن يسارها، ورافقت الرجل. حطت قدمها على عتبة بيت تتصدره فتاه تبيع الطعمية.. سألتها عن أخيها، وأجابت أنه بالنادي، وأرسلتها إليه.

دخل الرجل إلى غرفة غير مستوية الجدران. تتوسط أرضيتها حصيرة بلاستيك ناعمة.

خلعت "سر السعادة" شبشبها البلاستيك وهي تطأ الحصيرة. جلس فوق الكنبه الوحيدة بالغرفة وجلست

على الأرض أمامه. عن يمينه مباشرة كان يتساقط ببطء،
خيط رفيع من تراب أسود من فجوة مظلمة في عروق
السقف، ويحط إلى جواره صانعًا هرمًا صغيرًا، ما إن
يتكامل حتى تتفضه السيدة.

جاء صادق،

وبكل هدوء طلب منه الرجل تطليق ابنته، وكأنما
ينفض عن يده ماءً، طَلَّقَتْ حنان.

1996

منذ عشر سنوات:

صلى جدي العشاء وذهب إلى أمي،
احتسى كوب الحلبة باللبن الذي
يفضله، ثم تتحنج وقال بخجل إن
إقامتي في الغرفة منذ اليوم حرام
شرعاً، فالغرفة بما فوقها نصيب
عمتي من إرث أمها. قالها واستغفر
الله وسكت. ولما رأى أن الدهشة في
عيني أمي قد عقدت لسانها، وكادت
دموعها القريبة أن تنهمر، أردف
قائلاً: إنني حتى صباح اليوم،
وقبل إعلان نتيجة البكالوريوس
كنت تلميذاً، أستحق المساعدة، لكني
الآن أصبحت مؤهلاً لكسب المال،
من ثم على أن أدفع إيجاراً لعمتي، أو
أترك الغرفة.

77

وفي صباح اليوم التالي :

ارتدت أمي جلبابها الأسود ولفت
الطرحة حول رأسها ومضت
مسرعة، وقبل أن تخرج من الحارة

إلى الشارع الرئيسي عادت وأطلقت
الدجاج من الأقفاص. فراح ينفذ
ريشه تحت ضوء الشمس التي لم
تشتد بعد.

اختصرت السكة وسلكت طريق
الكورنيش، دخلت من باب الشقة
المفتوح. اتجهت إلى عمتها مباشرة.
همت عمتي بالنهوض، لكن أمي
أسرعت بالانحناء عليها وقبلتها وهي
قاعدة، ثم جلست إلى جوارها بوجه
متكدر، منذ ليلة أمس، شربتا القهوة
التي تصنع عمتي كل مراحلها بيديها،
منذ أن تشتري حبوب البن الخضراء
حتى تحمصها وتطحنها وتخلطها
بجوز الطيب والقرنفل والحبهان
الحبشي.

لحست عمتي بقايا البن بسبابتها
وقالت:

— مادام أبوكي قال إنه نصيبي، يبقى
بتاع فوزي طول ما أنا عايشه.

وضحكت، فشظلت الأساور الذهبية
في ذراعيها، والتمتع في وجهها
المدور ذلك النور الذي يحيط به
دومًا، وبان طاقم أسنانها الذهبي الذي
صنعه لها الأسطي إدوار، وكان
طبيبها قد خيّر لها بين أشكال الأطقم
المختلفة، فاخترت الذهب، واتفق
معهما على تغييره كل عامين، بسبب
لثتها الآخذة في الضمور، إثر
إصابتها بداء السكر، وأردفت: إيجار
إيه يا خايبه.

وسط عيون كثيرة تشبع الكتب فحصًا وتقليبًا.. رأيتها
- شيرين على - من وراء ألواح خشبية قصيرة تفصل
بين أجنحة العرض برزت عينان.. نجمتان.. نقيتان،
ينعكس فيهما العالم بصفاء، كأنما تمسح عن مواضع
الرؤية القشور وتبقى على ما ينفع.

تحيط الأغلفة بنظرات متأنية، ولا تمد يدها لكتاب إلا
نادرًا، وحين تلتقطه تضعه مباشرة في كيسها، تأهبًا لدفع

ثمّنه، وكأنّها لم تغب عني لحظة، كأن الوقت لم يمض
منذ آخر مرة كنا معاً قبل تسع سنوات.

قدمني لها حامد أحمد، ثم تركنا وحدنا، ولم أره ثانية
إلا مساءً. ومساءً كان الحب في عيني جلياً، غير
متخاذل، فعانقني.

ربما تخونني الذاكرة في استرجاع ملامح ناس لم
أرهم منذ أمد، لكن ملامحها ماثلة بين الجفنين، لم
تبرحهما أبداً.. هي الملامح ذاتها التي لقيتها في عيني
دعاء التي نزلت في دار السلام..

استرخاؤنا فوق حشائش القناطر الخيرية، طائر
الكروان الذي كان يسبح كلما تقابلنا، حياؤها الذي منعها
من الجلوس معي على مقهى في الجمالية، فوقفت عن
بعد تتملاني وأنا أدخن الشيشة، رذاذ الماء على وجهينا
في بحيرة قارون، ألق الرحلة النيلية إلى معبد فيلة.

لم تقل، ولم أقل لها: أحبك.

فقط.. قالت: حين أحبك سيكون ذلك معلناً أمام
الجميع.

نزلت دعاء في دار السلام، وكانت شيرين قد قالت:

أمي تغار منى على زوجها.

قلت: معها حق، فجمالك فوق أن يحتمله رجل.

من المؤكد أنها تعرف ذلك.

وقلت: هل تعتقدين أن ما بيننا يمكن أن يكتمل.

كان أبوها هو آخر عائلته الأرستقراطية، مات بعد
غربة عشرين عاماً، حصلت في آخرها على الثانوية من
الخارج، ووديعة باسمها، وكانت تخشى أن ينالها الفقر
بعد موته.. لقد رتبت أمها للفرار منه بزيجة مرتاحة،
وهو نفس نية شيرين التي أعلنتها صراحة، كما
صارحتني بضعف طموحاتي المالية.

— نعم.. هو الحب بعينه، ولكن الحياة شيء آخر.

— إذن دعينا على الأقل نتجول فوق أرضه، ربما

تصيادفنا خيمة، نستجير بها.

— كل ما أملكه لك. إذا رغبت منى شيئاً، فاطلبه ولا

تتردد.

— لا أريد غير احتضان كفك.

مدت كفها نحوى وقالت:

— هي لك.

يالها من مفاجأة حقيقية حين اقتربت بكتفها من كتفي
حتى تلامسا، فتعلقت بداخلي أول رغبة انتابتي عندما
رأيتها.

وقفت شرين قبالي.. دقت في عيني، رفعت رأسها
إلى السماء الناصعة، مارة في طريقها بنهاية مبنى
المحاضرات، توقفت عند يمامة بنية دقيقة الجسم حطت
على الحافة، ثم أحنّت رأسها إلى الأرض على مهل،
حتى التصقت عيناها بقدميها وقالت: لكن الحياة شيء
آخر.

ورغم كل شيء كان دبيب اليقظة يسرى في الأعضاء
كل صباح، فيغسل الماء عن الأعصاب النامية فوق الجلد
— كما قال لي حامد ذات مرة — بقع الحزن الداكنة،
ويتوضأ القلب من رجس البغضاء والكراهية لكل من
امتدت له اليد، ولم يحتوها بين دفاء كفيه، فظلت معلقة
في الفضاء، مرهونة بإشراقة وجه طيب ينحني إلى جسم
ملتف ببعضه، ويلقاه بلسان هامس، بصباح خير معجونة
بخبرات العشاق الحقيقيين في نطق الكلمات. وكنت
أمضي إليها.

آخر ما توقعته هو مقابلة الحكايا القديمة، بعد كل ذلك الوقت، وفي غير أماكنها.. أن تتبعث في هذه الأجواء بالذات مشاعر راحت أيامها ولم يبق منها إلا رحيق حلو يزورني كلما اشتد إحساسي بالخدعة. ربما هذا هو ما جعلني مصلوبًا في مكاني، أتابعها حتى اتجهت إلى الخارج، بين كوكبة من أخريات التقيين بها وصعدن معا حافلة كانت واقفة في ساحة انتظار أسواق اليورومارشيه بوسط مدينة الرياض، وأخذت شيرين موقعها بجوار أحد الشبابيك.

أزّ محرك العربة، وامتدت أصابعها تزيح زجاج الشباك، تحركت مقتربًا من نافذتها، لمحت عيناها عيني، لم تبص باستغراب كما حدثت، التفتت إلى جارتها وعادت تنظر من جديد، ثم ابتسمت، هزت رأسها خفيًا ونطقت اسمي بصوت خفيض، لم أسمعها واضحًا، لكنني شفت حروفه في حركة شفيتها، فنطقت باسمها، رنذته بصوت مشروخ أشبه بحشرة محتضر، حتما شافته قبل أن يفر السائق بالعربة إلى وجهة أنى لي أن أعلمها، وفي بلد لا أدرك دروبه ولا تدركني.

وكانها قالت:

- لن تتغير.. هي ذات الدهشة في عينيك، ستظل
تلجئك عن الفعل.

وكانني قلت:

- وماذا غير الدهشة؟

ضحكت، وكست صوتها بنبرة أستاذية وقالت:

- سحابة دموع تضي لمعانا على لونهما العسلي يا
ولد.

وكان الليل ينشر أغطيته على جسد العالم، وصوت
ماجدة الرومي يتسرب من سيارة واقفة، شاديا بحكايته
الأزلية:

ساعات أقوم الصبح قلبي حزين

أطل بره الباب ياخذني الحنين.

إنها العادة الغالبة إذن.. أن تنتهي هذه الأوقات

بخيبات سافرة قمیئة، فيالحسرتك وأنت تقلب الآن في
وجوههن عن كائن يشتي مثلك المستحيل.

لم أكن أحلم بأكثر من أن تحط
شيرين بغرفتي ولو للحظة واحدة.
تلمس بيدها الأشياء التي أستعملها،
تعد لنا فنجانى قهوة وتجلس على
حافة السرير إلى جوارى وأنا ممدد،
تلامس بخدها خدى، ليس أكثر! وبعد
أن ترحل تبقى رائحتها فى الغرفة،
مثل تعويذة تحمى الروح من غوائل
الصمت والوحدة.

ساهر حشيش

ما كان يبحث عنه بلهفة لم يجده.
توقفت أصابعه فى اللحظة التي رأى ابتسامة شامتة
تستريح على وجه أمه، التي باغته دخولها، فاستكمل
انتشال رأسه من تجويف الكومودينو المعتم، وأغلق
ضلفته بهدوء.
نفض أصابعه..
— حد خد المفتاح غيرك
— لأ.

وجلجلت بالضحك، فضحك.

بقدر ما طمأنت هواجسه.. خاب أمله، وفُضُّ الشوق
الذي رافق السكة من بلاد بعيدة إلى هنا.

كان يبحث عن قطعتين من ملابس زينب، البنت التي
كانت تزامله في الشركة التي عمل فيها بعقد مؤقت إلى
جانب الدراسة، وقد أصر على الاحتفاظ بهما في آخر
لقاء لهما قبل سفره، هي تلك اللقاءات التي ربما مازال
جسد أيامها يحتفظ بخمش أصابعه وغرز أسنانه فيه،
وتشهد عليه غرفة المراجعة. ربوة القلعة. سفح المقطم.
ميدان رمسيس. زحام العتبة، وخلاء كورنيش الزمالك،
حيث كان الفعل يستلبهما، فتشتعل الحرائق خلصة في
كثير من الأوقات، علنا في بعضها، حيث لا يتوقع أحد،
وإذا تلمحهما مدام سحر، تتلمز وتطلق زفرتها الحادة
المشهوره، فيرتفع صدرها ويهبط فجأة مستقرًا، بعد
رجرجة خفيفة تأخذ بمطامح زملائها العارفين، الجالسين
وراء مكاتب معدنية رمادية تشكل مربعًا ناقصًا ضلعًا،
وتطلق شياطين التخيل من معاقلها.

ما كان يبحث عنه بلهفة لم يجده. توقف في اللحظة
التي اقتحمت عليه الغرفة أمه.

— ما تتجوز بنت عمك ياوله، وتتلم عن بنات الناس
بقي، مش كنت زمان بتحبها يا وسخ.

— لو لسه قلبي شاييل رغبة فيها، كنت أخلعه من
صدري وارميه للكلاب.

أحكم الغضب كماشته على وجهه، ولم يستطع أن
يزيح غيظاً تجلى في ضغط أسنانه على مخارج الكلام،
ناقلاً مله من سيرة الزواج التي لم تخلُ من مجلس حطَّ
به منذ آب، حتى عَفَّ مجالسهم.

ليس يرغب في امرأة يخرس بعد الزواج لسانها،
وتصير مثل طقس أغسطس المكتوم، ولا امرأة تتحول
إلى شرطي يحسب عليه نأماته ويترصده حتى حافة
الأحلام.

— واحده زى سحر يعنى.

— اللي زى سحر ما تسمحش لراجل بامتلاكها.. دى

87

ممكّن تستنزف حياتك، مقابل لحظة متعة سرعان ما
يروح طعمها، ولا حتى زينب كانت تتفع.. جلدتها تخين.

ذي سكة أدبرت، والقطعتان اللتان كان يبحث عنهما
عثرتا عليهما أمه بين حاجاته بعد سفره، وتخلصت

منهما، فأغلقت الأبواب، وبنت العم التي كان يحبها في الصبا تراجع عن كلامه بشأنها مع أبيها، الذي أرسل له عقد عمل بالخليج وهو طالباً مازال، بمجرد أن طابت إقامته هناك قطع علاقته بعمه ولم يعد يزوره، لا لشيء إلا خشية أن يقال إن عمه وابنته هما وش السعد عليه، وأنهما وراء ما سيصيبه حتماً من رغد في العيش، لا يريد أن يمكن مخلوقاً من ادعاء فضل عليه، ثم أسابيع قليلة أعقبت عودته وكان بين جناحي زوجة عاشرها دون أن تنقطع رغبته في زميلته القديمة التي لم يعثر لها على أثر منذ عودته، كان يتمنى رؤيتها ولو لمرة واحدة أخيرة، يختتم فيها أحداث لقائهما الأخير الذي كان بارداً، ومبتوراً لحزنهما على سفره، ولم يكن فيه ما يبهج غير مناورته العنيفة التي أسفرت عن فوز يده بمجرد قطعتين دقيقتين من ملابسها، أخذهما للذكرى دون أن يزيد، لم تخب رغبته تلك إلا حين داهمته "توال"، سكة لا يدرى أين مبتدأها. سكة جديدة تماماً.. همزة صلة بين طرازين متعارضين.. طراز التايورات المضغوطة عند الخصر، الواسعة فيما دونه، وطراز الإستريشات التي تكاد أن

تكون مجرد ألوان على الساقين.. زينب وهى، ونظرات
زملائه توشى بحسرة مفضوحة لما آلت إليه الزوجات
من روتينية بليدة، لم تكن بالحسبان مطلقاً، فالشكوى
توحى بأسى حقيقي، وفى العيون إحساس بفقد طزاجة
الأقمشة وحدائثها المبهجة، والأصابع المرتبكة تتشوف
للمسة مرتعشة، ممثلة ببراءة البدايات، أما الأعزب
الوحيد بينهم فليس يفهم بعد لماذا نظراتهم نهمة هكذا،
ومهما شرحوا وعللوا فقد كانوا بالنسبة له دوناً، وفى
صمت يكابد حباً لها تأخر فى إعلانها، فالتقطت منه
وترك في العراء.

وهى الفتاة.. بوجه تسر الناظرين بيضاويته
المستريحة، وقامة متسامقة. بشفتين ممثلتين، تتعاقب
عليهما أصابع طلاء الشفاه.. يا للون البني من جرأة
وتوحش يوم يتوسدهما، بأصابع رفيعة بيضاء تتناوب
أظفارها ألوان الطيف، وفى يوم الخميس تطليهم بالأسود
المزركش بالفضي، فيصبحون حين تفردهم أمامها مثل
خريطة دقيقة الخطوط، واضحة المعالم.

- جمالها الأنف فوق أن يجعل الإنسان مجرد أصابع

تمر فوق الأوراق بأدب مبالغ فيه أو صوت حيي في
حديث مبتور، مضطر لفقء عينيه أمام أنوثة متفجرة،
من نبع ثرّ، مجهول، كالموسيقى.
"يوما ما سأخذك لتراها، لتعرف كم هم معذورون
ومحرومون".



هل يمكن أن ينصلح الوقت ذات
مرة، ويدفع في طريقى ببنت تكون
بعضاً من شيرين. بنت فى مثل دعاء
التي نزلت فى دار السلام، تقبل أن
تحيا معى فى هذا البيت؟
أم أن الغرفة ستبقى شيئاً يخصنى
وحدى. يدخل إليها الأصدقاء
ويخرجون منها بعدما يعلق بأرواحهم
شيء لم يدر أحد كنته. مع ذلك لم
يعد نتقابل إلا صدفة، والحكايات
القديمة معلقة فى الفراغ. تشهد عليها
رفوف الكتب ودولاب الملابس
البلاستيكى وصورة الكعبة فى
التجويف.

عبد المجيد رسلان

قابله صدفة. جسد مائل إلى النحافة ورأس بمقدمة
صلعاء وشعر خفيف فى الجانبين، يغلب عليه البياض.

كان عبد المجيد رسلان ينتظر المترو القادم من شبرا،
باتجاه التحرير، وعيناه تنتقلان بين الواقفات على
الرصيف، دون حملقة في واحدة بعينها.

نزلنا معًا محطة رمسيس، وعلى مقهى في الميدان
قال إنه يعمل في شركة بالمهندسين، وإنه لن يذهب إلى
هناك اليوم، لأنه رآني، وقال:

— نفسي أقضي يوم في الحسين.. عارف ما رحتش
هناك من إمتي؟ من يوم ما كنا مع بعض. إنت وشيرين،
وأنا وسعاد.

— أخباركم إيه.

تتهد قائلًا:

— عندنا ولد وبنت.

— مستريحين

— حياة عادية.

ومرت أمامنا فتاة، اشتبكت عيناه بجسدها حتى غابت،

كان هذه المرة يحملق بشدة، وحين عاد إلى أبدى إعجابه
بنحافة الفتاه، ونضارة بدنها.

— اتجوزت؟

— لا.

— وشيرين؟

— ..

— مع إنك سافرت.

يتكلم بيقين لم يكن يسكتني، ولأول مرة أفكر في الأمر برمته، ربما لو كنت تحدثت مع أحد أيامها فيما أحسه وأعانيه لضحك واستهزأ بي، لكنها الحقيقة. كانت نجوى — ابنة أخي الذي طلق زوجته وسافر — قد رسمت الأنوثة جسدها. خوفي عليها جعلني أحاصر حركاتها، نعم كنت أثق فيها، لكن شيطان المراهقة يختبئ بين اللحم والجلد، وبغثة يفترسنا. يطلع علينا بأنياب حكاية متشابكة ومعقدة، ومهما كانت رعايتي لها، إلا أن أرضها رخوة وأيامها وحياتها ثوب مرتق. نفذ من ثقبه ولد أربك أيامنا. نفت أن تكون بينهما علاقة إلا في خياله هو. نسجها وسربها لأصدقائه، فلاكتنا الألسنة، وصار كل من تصله الحكاية من الأسرة أو الجيران خبيراً بعلم النفس وأصول التربية، حتى استفزني الأمر. وأحسست أن الحكاية برمتها — وإن كانت وهما، حسيب تأكيدها —

إهانة تستهدفني مباشرة وتتهم تقصيري في مسؤوليتها.
تحرشت بالولد مرات، وفي كل مرة كان يفلت مني.

حكى لي حامد - من قبل - حكاية مشابهة، جرت
لأخت صاحب قديم له، وحلت بطريقة مازالت أدهش
لها كلما تذكرتها: استدرجوا الولد إلى بيتهم، وحين أمسى
بين أيديهم خدروه، ثم حقنوه بعقار منشط لهرمونات
الأنوثة. وابتعد الولد عن البنت تمامًا، بل كان يومًا وراء
يوم تظهر عليه ملامح أنثوية خفيفة.

كانت الحكاية تعجبني وكما استرجعتها حسدت
فاعليها على جرأتهم. تلك الجرأة التي أفقد إليها معظم
الوقت، لكنني أغتبط لأصحابها.

في المرة الأخيرة اشتبكت معه. حاصرته بين حائط
في الشارع وبينني، وأخذت ألكمه وأركله، حتى تجمع
الناس حولنا. أفلتوه من قبضتي، لكن الغضب كان قد
استبدّ بي، فانقضضت عليه مرة ثانية وأوقعته على حافة
الرصيف، ضربته بعنف لم أعده في.

فَضُّ الاشتباك، وعند الفجر ألمني رسغي.

ذهبت صباحًا إلى المستشفى، وأجريت صورة أشعة

ليدي، ثم رأيته أمامي وأنا خارج من قسم الأشعة. كان بصحبة أمه. سيدة بسيطة، لا تعلم شيئاً عن زوجها المسافر منذ عشر سنوات، حتى صار في عداد المفقودين. كان الولد يربط ذراعه اليمنى ويحملها على بطنه برباط معقود إلى كتفه. أشار إلي، فنظرت أمه نحوي. التقت عيناها بعيني، لم أر ذلك القدر من الحزن في عيني من قبل. اقتربت مني ورفعت يديها إلى أعلى، تدعو عليّ، ثم أزاحت الطرحة عن رأسها ومسحت عليها بكفيها، فبكيت ورجوتها أن تسامحني.. انهمرت باكية، فأخذت الولد في حضني وربت رأسه.. تأسفت له. عاتبتي. ووجدتني أنهمر عليها مقبلاً رأسها.

حاصررتي عيناها الحزینتان لوقت طويل، كنت أراها دائماً وأسمع دعاءها عليّ يتردد في كل مكان، يغيب لحظات ثم يعود قوياً. وأمسيّت أتواجد خارج الغرفة لفترات طويلة ولا أدخلها إلا مهدوداً، وحين أحط جسدي على السرير يشرق الإحساس بالذنب. إحساس ممضٍ، لم أعيشه من قبل.

كانت "سيدة قابيل" توقن أن أمراً ما يحزّ بنفسي، لكنها

لا تعلمه. حكيت لها ما حدث ولم أتكلم عن الشعور الذي خلفته الحادثة، رغم حاجتي الملحة للتخلص منه، إلا أنني لم أكن أحب أن أتعرى أمام من يعرفونني.. أكره الإحساس بأن ضعفي مكشوف ومفصوح، ليس فقط إلى الدرجة التي تجعل الآخرين يعرفون ردود الأفعال مسبقاً، فيلاعبونك - أحياناً - من نفس المنطقة ويضغطون عليها، وإنما بأي شكل يؤدي إلى معرفة الداخل، تلك القوانين التي لا تخصّ أحداً سواي، وعلى الرغم من أن سيدة قابيل لا تثرثر بما تعرفه عن الآخرين إلا أن الأمر ارتبط بفكرة الضعف والقوة، بالتحديد بأن أظل قوياً في نظرها. كان ذلك الإحساس جديداً تماماً عليّ، أعانيه وحدي، ووحدني بين تلافيفي واشتباكات الغامضة التي فتحت أبواباً كانت مغلقة، قادت إلى أبواب أخرى وأبواب، هكذا ارتسمت المتاهة.

"لم أسافر من أجل المال وبناء المستقبل يا عبد المجيد".

كان ساهر يرأسني من الخارج، وقبل ذلك الحادث بشهر كتب يقول: إنه يبحث لي عن فرصة عمل، في

إحدى المؤسسات التي تتعامل معها الشركة المتعاقد معها هناك وإنه لم يخبرني بهذا إلا حين بات الأمر وشيك التحقق، وقال: انتظر تأشيرة بين يوم وآخر.

لم أحك لأحد عن الفرصة المأمولة، تعاملت مع الأمر كسِرّ عسكري، باستثناء أمي التي باركت خطاي، وأرفقتها بالدعاء، وأنا أعلم أنها تطوى إحساسًا قاسيًا بالوحدة التي سوف يحيلها سفري أنا الآخر إلى غول يهدد أيامها، لكن إحساسي بالذنب ورغبتي في الخلاص منه كانا أكبر من رأفتي بها.

وكان على أن أتكلم بحماس معها طول الوقت عن المستقبل والمال والزوجة والأولاد المرتقبين، حتى أمست ترتقب سفري، وهي تتطوي على ألم عظيم.

لقد تركت البيت منذ الصباح يوم سفري، لم تودعني، ادّعت أنها خارجة للتسوق وذهبت إلى جيراننا بالدور الثاني في البيت المقابل. جلست وراء الشباك المطل على مدخل بيتنا، تتابع دخولي وخروجي وأنا طيلة الوقت أقطع المسافة بين بيتنا وغرفتي جيئة وذهابًا.. بين دموع جدتي ونشيج نجوى المتصل، وعندما جلست في السيارة

التي جاءت لتقلني إلى المطار، أطلت من وراء الزجاج
عليها، وسافرت.. ليس يشغلني غير الخلاص.

الآن.. أدرك أن الأمر كله كان خدعة.

(أية خدعة تلك التي دبرت بمكر شديد لاصطيادنا..

نحن الرقيقين، أصحاب القلوب الرهيفة، عشاق الجمال

الحقيقي الأسر، الآخذ بالألباب، المرتقي بها إلى سماوات

الوصل الإنساني الحقيقي، لا الزائف؟

أين الواعدات ببيوت لا تسكنها غربان الروتينية

والملل والضجر؟

في أي قبر دفنت تلك القدرة على الإدهاش؟. أين

الطزاجة؟

راحت البكارة إذن، وبقيت الخدعة!

وأنت لا يمكنك أن تبقى ثوراً في ساقية لا تسمع حتى

دعاء زائفا بأن توفق أو تبقى حياً. تباعد الطرق بين

الجزائر.

98

تباعد، ولم يعد هناك ما يحفز!

كان عبد المجيد يتحدث وكأن محمومًا يهذى، كأن

محتالاً سلبه شيئاً ثميناً لم يكن يملك سواه، وتساءلت وهو

يهذى كذلك، عما كان سيؤول إليه حالي لو كنت قد تزوجت شيرين، يتكلم عن البدانة المفرطة التي آلت إليها سعاد بقرف مفرط، وعن البلاهة التي تتنابها كلما تقمصت شخصية رقيقة وحاولت تقليدها في مشهد ممسوخ.. حتمًا كنت ساكرها، لقد رأيتها بعد أن تحول جسدها إلى زوائد لحمية مضغوطة تحت ملابسها، وحين تحققت من وجهها بدا عريضًا، بأنف كبير، ذي فتحتين واسعتين.

جلسنا على مقهى في خان الخليلي. عدنا إلى وسط البلد، دخلنا سينما، وشاهدنا فيلم يوسف شاهين: المهاجر، وتناقشنا طويلاً في شخصية رام، ولم أسأله عن حقيقة ما به.

علم منى أن ساهر عاد من السفر واستقر نهائياً بمصر، وأخبرني أنه لم يكن يحب ساهر ولا سعاد كانت ترتاح إليه، تقول إنه بلا قلب وعقله مرتب ومحدد بصورة مزعجة.

وكان ضجرًا، منتقلًا بحديثه من أسى إلى أسى، مستاءً من زحمة الهواجس في الرأس والناس في

الشوارع، لاعناً عجزه عن ملء بطن العيش، وعن إيجاد
موضع لقدميه. وكان أكثرنا ضجرًا لما أشرف بركبنا
سائق الميكروباس على وضع النهاية، منحرفاً عن
امتداد الطريق الأسفلتي، منزلقاً إلى حافة ترعة.

كان أول القافزين من الشباك، صائحاً بي: سهل علينا
نرجع لعيالنا.

ولم يكن لي عيال ولم تكن بي رغبة.

أريد أن أرى شيرين لمرة أخيرة،
أنام على صدرها، لأنى لم أفعل
ذلك، أعانقها مودعاً، عناقاً يليق
بحبيبين لن يلتقيا مرة أخرى.

نزلت دعاء في دار السلام، والقلب الناشف مازال
ناشفاً. الحاجة إلى فتاة مثل فتاه صديقي القديم حامد
تشتد، الفكرة.. الهاجس.. صارت عوزاً حقيقياً، يحفر
مساراته في صفحة الوقت المتكررة بدأب لا يفصله إلا
حسابات المكسب والخسارة المحتملة، تلك التي أجهضت
نبات رقيقة، كانت تتشوف للطلوع. بددت آمالاً وضيعت
وجوها ممكنة سابت من بين أصابعي.

وجه دنيا كان باسمًا في حركته، رائقًا في صمته. بدا
جسدها دقيقًا من بعيد.. تقف مع أخرى قمحية، امتلاؤها
الفج جعل دنيا مثل فراشة. كانتا تشيران للسيارات
الذاهبة إلى زمسيس. اقتاد عبد المجيد زميله الجديد
ساهر بخفة ومكر إلى دنو منهما، ممنيًا نفسه بعدم إفلاتها
منه. اكتشف ساهر الحيلة، فابتسم.

— اسكت خالص.. أرجوك.

واقفه في الوقت الذي توقف فيه أمامهما
الميكروباص، وقبل أن ينغلق الباب كانا قد لحقا بهما.
استقرت البدينة في الكرسي الأخير، لصق الشباك، واجه
عبد المجيد شريط أبيض من ظهرها، كشفه فرار حافة
التي شيرت القصير من بنطلونها، لم ير ما رأى. فقط
رأى وجهها الرائق وهو يلتفت إليه، بعدما ما قرَّ جسده
إلى جوارها مباشرة وترك ساهر للكرسي السابق.

لمح طرف عينها اليمنى ترمقه، ورأى طرف عينها
الأخرى وهي ترسل لصاحبيتها غمزة خفيفة. واصل
ساهر كلامه عن أيامه القديمة مع زينب، ثم سكت حين
ولج الكلام إلى تفاصيل ما كان يحدث في غرفة
الحسابات، قبل توافد الموظفين صباحًا، وكانت رغبة
عبد المجيد الخفية أن يكمل بذات النبذة الخافتة ليرسل
إشارة إلى البننتين تفيد بمعارفهما السرية. أولاه ظهره،
فتولت يده تعسّس بين أوراقه عما يلفت انتباه بنت
متململة، تدفع زميلتها بكوعها كل حين.

حدق فيها بجرأة جاوبتها دنيا بسؤال عن كبريت، لم

يشأ أن يرد طلبها بسخف يفسد احتمالات البدء.

كانت تحتاج إلى نار وهو بحاجة إلى سيجارة، واليوم في بدايته وللأمانى طعم عذب. استعار ولاعة من أحد الركاب، وبشفتيه أشعل النار في سيجارتها. كانتا تدخان في حياء حاول إزاحته بدفعهما لنفخ الدخان عالياً، فأشارت إلى الركاب والسائق الذي حتما يرى عبر مرآته.. لوح في الفراغ باستنكار، قواه امتعاض. أنفه وحركة شفتيه، فارتاحتا إلى الفكرة وراحت حلقات الدخان ترسم أشكالاً متراقصة.

كلمات عصية استجمعها من هنا وهناك، امتدت على ظلالها يد دنيا إلى حقيبتها المجدولة بسيور جلدية رفيعة، وأخرجت صوراً تسجل لحظاتها المختلفة.

— دول أصدقائك في الجامعة.

أومات برأسها وراحت تحكى بنشوة:

— كثيرًا ما كانوا يتلصصون علينا ونحن نستخدم

السلم الداخلي للمدينة الجامعية، ودائماً كانت معاكساتهم تضحكنا. كانوا إذا رأوا واحدة منا وقد ارتدت فستاناً كاشفاً عن كتفيها أو صدرها، يطلق أحدهم صفارة مميزة

يستوفد الآخرون على أزيها، في تراحم على الشبابيك
والشرفات، يصفرون جميعًا في صوت واحد، ويلوحون
لنا بمناديل بيضاء.

كنا نلوح لهم في بعض الأحيان، وفي أحوال كثيرة
نتغاضب ونمضي سريعًا إلى الإدارة كي نشكوهم.
وكعادتنا ونحن في المطعم كنا نخطب بالملاعق على
الصحون والترايبيزات، فتتطلق أصوات رفيعة.. حادة،
نصفق على تناغمها أو نغنى.

وكانت أصوات تحركهم داخل مطعمهم تنقلت إلينا —
دوماً — عبر الجدار الخشبي الفاصل بين المطعمين، لكن
وبعد أن أغلقت الإدارة شبابيك وشرفات مدينتهم المظلة
على سلم مدينتنا ولم نعد نراهم إلا في الأتوبيسات التي
تنقلنا إلى كلياتنا في الصباح وتعود بنا في المساء..
لاحظنا أنهم — هم الآخرون — يفعلون ما نفعل، حتى إن
أصواتهم كانت تأتي كصدى لأصواتنا..

نخطب، يخطبون. نصفق، يصفقون. نغنى، فيغنون،
ولكن في خشونة وغلظة.. نسكت، فيسكتون.
وكنا إذا نلتقي بهم في السيارات يعاملوننا بلطف

وأدب، فإذا ما صعدت واحدة منا إلى الأتوبيس المزدهم
بالطلاب وأحدهم جالس، ينهض ويجلسها مكانه، ويظل
مطرقاً إلى الأرض في حياء.

واليوم لمحنا من شباك الأتوبيس فتى يتأبط ذراع فتاة
وفى عينيها وجد رقيق، فغمزت الواحدة للواحدة،
والواحد للآخر، حتى سرت في الجو آهات لينة، فجأة..
انفك صوت أحدهم — هادئاً — بأغنية أسيانة، ثم علا
وعلا، حتى وجدنا أنفسنا نغنى وراءه.

كانت قد أفرغت في الهواء دخان سيجارتين وفى قلبه
حكاية، فهيجت حكايات بعيدة، لم يعثر من بينها على
واحدة مكتملة غير هذى، فقال:

زمان .. كنت أسأل والأولاد يجيبون:

— ماذا نلعب الليلة؟

— الاستغماية

— لأ.. لمس الحمام.

— حلوة؟.

كانت تجرى ورائي.. يدها تحاول لمس جسمي،
فأتمهل لتمسك بى، وتعود إليهم قائلة: ها هو،
فيضحكون.

— وكل الحمام يطير في جماعات ويحط على الأرض
في جماعات، لكن اليمام لا يطير ولا يحيط في أسراب، بل
يمضي اثنان.. اثنان، وكنا قديمًا نختبئ وكان بعضنا يعثر
على بعضه، وها نحن صرنا نلعبها دونما اتفاق، نصطدم
ببعضنا في الشوارع، فتنماس بالتحيات السريعة، ويمشي
كل منا إلى حاله.

وفي المرة الأخيرة، حين جرت ورائي، وأمسكت
يدي.. بقيت محتضناً كفها طويلاً، ومشيت بها عكس
الطريق التي ينتظرون عند أولها، ولما قابلتهم صدفة،
سألتهم:

— ماذا نلعب الليلة؟

نظروا إليها، وقالوا:

— لمس اليمام.

وضحكوا.

كان ينظر في عينيها، ويده طول الوقت تحاول لمس
جسدها، ولما صار الكلام يتدافع وحده، نحو بوابات
الممكن فاجأته بما لم يكن في البال:

— بس أنت عجوز قوى، وشكلك متجوز!

أي أسبى حطّ عليه وقتها، بينما كان ساهر سادراً في

نوبة ضحك شيطانية..

لماذا صار الوضع ثقيلًا ولزجًا، يتحिन نهايته.

— أصلك مغفل، ما حدش يتكلم مع عصفورة زي دي

عن العمر اللي جرى والأحزان، دول عاوزين يقضوا

وقتهم. أنا كنت سامع الحوار كله. إنت اللي مافهمتش.

وضحك ساهر، بينما كف عبد المجيد مقفولة على

ربع جنيه جديد أعطته له "عيدية"، فقد كان العيد غدًا.

لماذا لم تأت معي شيرين إلى سيدة
قابيل وتتعرف إليها. شيرين التي
كانت تحب البيوت القديمة وتتمنى
أن يكون لديها قبقاب خشبي مثل
الذي عند جدي. وتحب رائحة
السجائر التي أشربها.
لماذا ظل لقاؤها بسيدة مجرد أمنية
ووقفت في طريقها الحوائل.

علمت أن محمد قابيل سوف يأتي قريباً؛ ليحضر
زفاف أخيه الأكبر.
وكان منذ سنوات تسع قد فرغ من صلاة الجمعة.
التفت يساراً، وجد شقيقه الأصغر بجواره. ابتسم له،
وتناول حذاءه وخرج.
كان عازماً منذ الصباح أن يذهب إلى أبيه في المحل
بعد الصلاة، يعرض عليه الفكرة.

لقد تخرجنا منذ عام وأوشكنا على الانتهاء من أداء
الخدمة العسكرية، والآتي في عيوننا غائم، الدفعة التي

تخرجت قبلنا لم يجد معظمهما عمل حتى الآن.
دفعه للتفكير في الأمر شقيقه الأصغر، الذي دخل
الجامعة وصار يتحدث طويلاً عن المستقبل.
إنه يشعر تجاه أخيه بأبوة مفرطة، دائماً قلق ويخشى
عليه من الانحراف، الذي يرى أن أسبابه أمست تحيط
بنا من كل حذب.

قال لي مرة: إن هذا الولد سوف يأتي بفعل، يباغتنا
جميعاً به!

ولم يحدد نوع الفعل، لكنه كان على يقين وهو
يتحدث، وبدأ لي أنه يعرف شيئاً لا يريد التصريح به.
وأردف:

— دي مجرد فكرة.. دائماً تهاجمني، وتسيطر على.
تحدث في البداية بصوت هادئ، وكان أبوه يستمع إليه
بلا اكترات، وكان الأمر لا يعنيه، وحين تكلم، راح
يثرثر بموضوعات لا علاقة لها بالأمر فأدرك رفضه.

احتد محمد واتهم أباه بالأنانية، احمرّ وجه الأب
ونفرت عروقه وهو يتهمه وأخويه بالطمع والتواكل.
وزعق فيه:

— ده مشروع لينا كلنا وانت معانا.

— لما أموت خدوا الدكان واعملوا اللي انتو عاوزينه.
امتد الحوار طويلاً تسوده نبرة غضب من الطرفين،
وبكى محمد وهو يشرح لأبيه كيف يشعر بالقلق على
أخيه الأصغر.

ولما أدرك أن الحوار بلا طائل من ورائه، انصرف
وهو يشعر بالانكسار.

عاد إلى البيت، وبمجرد دخوله أخبرته سيدة قابيل أن
شقيقه الأصغر مات، صدمته سيارة عند نفق كفر
السراي، وقبل وصوله إلى المستشفى فارق الحياة.

هل يخبر سيدة قابيل أين كان قبل مجيئه!.. هل كانت
بسمته في الجامع بعد الصلاة وداعاً.

هل يعود لأبيه ويقول له: مات من كنا نتحدث عنه..
تركنا على حافة الحديث ومضى.

لقد بقي ساكناً.

عشرون يوماً. نائماً على سريره بملابس الخروج،
يحملق في السقف، لا أحد يعرف إن كان ينام أم لا.

يدخلون له الطعام، فلا يمس. فقط يقضم جزءاً من
رغيف، ويلقى ببقية إلى جواره على السرير. وفي اليوم

العشرين انطلق صوته فجأة، بأهة عالية. طويلة، اهتز لها البيت، ثم بكى، انتحب بصوت مرتفع وانهمرت دموعه بغزارة.

وبنفس الشكل المفاجئ، جاعني في الغرفة، طلب فنجان قهوة، وقال: أريد بعض الكتب التي لا تحتاج إليها، وأخبرني أنه سيسافر إلى إيطاليا فجر الغد، وأنه جاء يودعني.

تركته في الغرفة وخرجت أهيم في الشوارع بغير هدى، ولم يعد من وقتها، ثم عرفت من سيدة قابيل أنه تزوج هناك، بفتاه من تورينتو، وبعد عام لحق به أخوه الأكبر، لكنه كان يعود كل عامين. يطمئن على أمه التي مازلت أصطحبها مرتين كل أسبوع في رحلتها، حيث تسلم عروقها لكف الممرضة، فتغرس بها رءوس الإبر السمكية، تكتم الألم في أحشائها، والدم عبر الأنابيب الشفافة يمر إلى ماكينة الغسيل.

112

تن.. تن.. تن

دقات ثلاث يعلن بها عن نفسه الولد الذي هو في شرح الشباب — زميلها في يوم غسيل الكلية — ثم يدخل مغنيًا في تمايل:

حاجة أمال يا أبهة

إيه العظمة دى كلها

وتبتسم وهو يحرك أصابعه بحركات بهلوانية، بعدها
يقفز في الهواء دورة تحطه على السرير، وبأعلى صوته
يعلن، وهو يمنح عروقه للممرضة:

بص .. شوف

أسامه ح يعمل إيه

ثم يصمت لما يطالع بعينه دمه الراكض إلى الجهاز.
كم من مرة اعتقدت أنه مات، فتنادى عليه: أسامه.
وتطول دقائق قبل أن يرد على صراخها المتكرر:
— ما تقلقش يا حاجة.. لسه عايش.

ويروح مردداً بصوت يأخذ في الخفوت حيناً بعد

حين:

حاجة أمال يا أبهة

إيه العظمة دى كلها.

كان محمد قابيل يرتدى بذلة سوداء لامعة، وقميص
وردي مفتوح حتى منتصف الصدر، حيث تظهر قلادة
ذهبية ثقيلة. ابيضت بشرته قليلاً باستثناء بعض

الاخضرار مكان شعر الذقن. ومالت إلى النضارة. على
عينيه نظارة شمس وشعره منكوش، وفي قدميه حذاء
برقبة طويلة. تفوح منه رائحة هادئة، لكنها واضحة
وقوية.

لم أذهب لرؤيته في اليوم الأول، رغم اشتياقي له،
دائماً أتحسب لهذه الأشياء، خشية أن يتصور أحد أني
ساع للهدية، والحقائب مفتوحة لا زالت.

ذهبت إليه عشية اليوم التالي، ورغم ألفتي الحميمة
مع البيت إلا أنني كنت أشعر بالخرج وأنا جالس
بانتظاره في غرفته القديمة، وقد تحولت إلى غرفة
للصالون يشغلها طاقم أوبيسون.

عانقني طويلاً، وارتجفت وهو يفلتني ثم يعاود عناقِي.
سألني عن أخباري، وقال إنه مشتاق للحديث معي
طويلاً، وطلب مني أن أعذره لأنه ذاهب الليلة إلى
القاهرة، حيث سيصطحب زوجته - التي حجز لها في
الهيلتون - إلى سهرة في حي الحسين، التي سمعت عن
سحره كثيراً، وأكد على حضوري زفاف أخيه بعد غد،
وقدم لي دعوة مطبوعة ببصمة الذهب.
وتركته.

ترددت طويلاً في الذهاب إلى الحفل، حتى هاتفتني
سيدة قابيل وأكدت على الدعوة، وفاجأتني فرحة بأنها
ستذهب هي الأخرى.

— نفسي أشوف الهيلتون، هو مش من حقنا برضه.
وضحكت.

ولأول مرة في حياتها تستخدم الكرسي المتحرك.
كانت تجلس إلى ترابيزة، مع أختها الكبرى وأخيها،
والد محمد، لم أجد أحداً أعرفه غيرهم، فجلست معهم،
كان محمد يتردد بين مائدتنا والكوشة، يأتي. يقف إلى
جوار أبيه ويضع يده على كتفيه، ثم يتركه ويعود إلى
العروسين، يقف وسطهما مصفقا، يردد الأغاني مع
المطربين. بين هذا وذاك ترافقه زوجته الإيطالية، هيفاء،
ترتدي فستان سواريه أسود لامع طويل، يكشف عن
معظم صدرها وكل الظهر وبأسفله فتحة طويلة تمتد إلى
ما بعد ركبتيها.

عزفت الموسيقى لحن ألف ليلة وليلة، ثم أطفئ النور
وأضيء فجأة على راقصة تتوسط العروسين، راحت
تنشر حركاتها حولهما، ثم جذبت إليها محمد ورقص
معهما، وانضمت إليهما زوجته، التي راحت تدور

بخصرها دورات متعاقبة أثارت تصفيق الجميع على
إيقاعها، فيما كانت سيدة قابيل مندهشة، لكنها سعيدة.

توقف الرقص وعاد محمد وزوجته، قدمني لها
بالإيطالية، وقدمها لي: سيلفيا مراتي، وربت كتفها
العاري وضمها إليه. شدت على يدي بحرارة مبالغة، ثم
جذبت محمد وعادت به إلى مكان العروسين.

افتتح البوفيه، وذهبت أملاً طبقاً لسيدة وكانت تشير
لي على بعض الأصناف، فأضعها في الطبق، حتى
أشارت لي بالاكتفاء.

خفتت الأضواء وانسابت الموسيقى ناعمة، كان
العروسان يرقصان وحدهما، حاول محمد دفع بعض
الحاضرين بزوجاتهم ليشاركوا العروسين، لكن أحدا لم
يستجب، فأخذ سيلفيا وانضم للعروسين، وكانت يده تروح
وتجيء على ظهرها حتى المنتصف في حركات ناعمة
وبطيئة، وكانت نائمة بنصف وجهها الأيسر على كتفه،
وبين الحين والحين تقبل جانب رقبتة.

حين وصلتُ كان المرض قد كنس
دارها وقطع الطبيب ساقها اليمنى
حتى الركبة، ونقلوا جسدها الهزيل،
الذي لم يبق من ملامحه القديمة إلا
طوله الفارع. إلى الغرفة وهي
تهذي.. شاففتي أمي، فهرعت إلى
باكية.

مثل فأر ملتاث، أكل السكر إصبع
قدمها المجروح، وتسحبت الغرغرينة
بسرعة مجنونة نحو قدم عمتي..
زوجة المرحوم محمد أبو سالم —
وش السعد عليه — الذي دخل بها
وهو لا يملك غير سيارة نقل
متواضعة، تعمل في نقل العفش
داخل البلد، وبعد العشرة فتح الله
عليه، فصار يمتلك أسطولاً صغيراً
من عربات النقل ، يربط طيلة الوقت
بين البلاد.

(إيجار إيه يا خايبة)!

رمىت بصري نحوها، كان فمها
خاليًا من الأسنان، وصدرها مجردًا
من كردانه الذهبي الشهير، ومكان
القرط الهلالي في أذنيها حلقتا خيط
رفيعتان.

— رجلي يا ولاد.

واستدارت بوجهها ناحيتي. جذبت
رأسي إليها وقبلتني، ثم همست:
— همّ قطعوها؟

سمعتها أمي، فبكت.

— يجبر خاطرك يابنى.. لو قطعوها
قولي. أنا مش حاسة بيها.

أتى عمي. دفع إلى يد أمي بمظروف
صغير وجلس لصق عمتي، انتحت
أمي جانبًا. فتحت المظروف، عدت
ما به، وأغلقتة ثانية. بان على
وجهها مزيد من الهم، مالت على

أنني وقالت:

— تقدر تساعد بكام؟.

مرت على جسدها أصابعه، وثمانية عيون صارت تجزم أن ما بينهما تخطى الغرف المكشوفة والأفعال المختلصة من بحر اليوم، واشتعل في دورة المياه. أكد الساعي أنه رأى ساهر يخرج من دورة مياه السيدات، وأكد أحدهم أن زرار بلوزتها الأخير كان قد انفصل عن مكانه عند الصدر، وأنها كانت تستخدم دبوس مشبك لتخفي أخدودًا عميقًا بين كرتين شمعتين، حتى أصغرهم صرح بأنها لم تعد تمشي مثل بنت وأن عينيها صارتا منتفختين بالشبق.

كلهم قالوا، ومن خلف قولهم هبت روائح الرغبات المكبوتة، تزفها الحسرة على اكتشافهم المتأخر لحقيقتها، كما أسروا لبعضهم، وأنهم كانوا مغفلين كل هذا الوقت، أو كما قالوا: ضُمَّ عُمى، لا يملكون إلا السنة احترفت 119 لعق الأمانى، فامتلات عيونهم بالحسد المكتوم على ما فاز ساهر به، إلا عينا مصطفى مرزوق.

— مصطفى بيحب نوال، ولما زعلت مع خطيبها

عرض عليها الجواز، لكن مصطفى ميملاش عندها.

(قطع)

عبد المجيد رسلان وحده بين شوارع القاهرة يتفحص
الناس

(1)

إنها آتية إليه مهرولة.
إنه كان في انتظارها، وعلى أذنيه هيدفون يتصل
بسلك رفيع إلى جيب الجاكت، ينقل إليه: عودوني عنك
أحبك.

(2)

إنها تنتظر إليه كمن يملك العالم، وتنتظر إلينا بترفع
شديد.

(3)

من أي نبت طلعت هذه الأجساد!

(4)

لحوم تتبدى بأحجامها الحقيقية، في مناطقها الأكثر
إيروتيكية.. أي جنون هذا.. أي شيطان ألقى في بالهن
صورة الشوارع خالية من الذكورة، فخرجن هكذا.

(5)

محطات المترو على طول الطريق تحمل أرصفتها
حكايات الحب. ياه.. كم سيب الكلام الحلو من مفاصل،
وفتح القلوب لهداهد بهيجة الألوان، قرت عليها وادعة.

(6)

تى شيرت قرمزي وإستريتش فضي، لامعان.
صبغة شفاه سوداء في نهر وجه ممتلئ بياضا.
صبغة شفاه في لون البن المحروق.
صبغة شفاه أحمر ميتالك.
أظافر يقسمها الطلاء إلى نصفين.
لمسة ماكياج خفيفة تمنح تفرداً مجاهراً.

(7)

إنها تنظر إلى بقرف مبالغ فيه وأنا أحتوى تفاصيلها.

(8)

حتمًا سوف تحتفظ عيناك بواحدة منهن وتبادلها
الحرائق سرًا.

(9)

وكل يوم واحدة جديدة.

(10)

وهكذا.. بضغطة خفيفة على زر الآلة التقطت
الصورة:

الرجل في المقدمة لا ينظر لشيء.
المرأة من ورائه، بيدها علبة بيبسي، مرفوعة باتجاه
شفتيها، وعيناها ملتصقتان بالفاترينات الفاخرة.
ومن ورائها، بنت في العشرين تقريبا، تحقق في
العالم بغضب.

(11)

وهكذا..

"تكتشف فجأة أنك ساذج.
وأنت مش فاهم حاجة.
لا عارف تحب ولا عارف تكره.
في كل جملة فيه كلمة بتوجعك، وتردك لجواك
المليان بقلق عمره من عمر الأرض، قلق غامض. بس
أنياه مغروسة في لحمك.

هكذا..

العمر بيتسرب وانت في مكانك واقف، مستسلم
لهشاشتك وخوفك، اللي أصبح زي السرطان بيهدد كل

شيء حواليك، بقيت زي دمة من دمعات برتولت
بريخت؛ لأنك مش عارف تبقى سهم فى قلب الحياة اللي
دايما بتخوفك.

الحياة اللي بتكره أمثالك، من زباين الأطباء النفسيين
وجلسات العلاج الجماعي.

متخرج من الجامعة من عشر سنين ومش قادر تستقر
في عمل، وأبوك زعلان لأنك ما اتوظفتش في الحكومة
علشان تضمن معاش كويس، والحقيقة إنك كاره تبقى
ورقة في دفتر لما يتملى يتحول مخازن.

سافرت زي كل المصريين اللي بيسافروا وما عملتش
حاجة. لا رصيد في البنك، ولا مشروع يحقق
خصوصيتك.

كل اللي يا دوب قدرت عليه.. تعمل شقة ، وندمان..
لأن أحمد صبحي يوم ما قالك: إنه مش ناوى يرجع من
بلاد بره إلا أما يرحلوه أو يقفلوها في وشه.. هاجمته،
وقلت له: إنت بليد وما عندكش دم.

رغم كل ده.. لسه عينيك بتدمع لما تشوف طفل يعيط
أو عيل صغير بيشحت لقمة، أو لما تزور الدكتور
صاحبك في مستشفى الأمراض النفسية وتشوف مريض

نفسه فى سيجارة ممنوعة عنه.. تصور مجرد سيجارة!،
وترجع كل اللي فى بطنك لما تعيش موقف غير إنساني،
السيد فيه هو القهر أو الحاجة.. يخنقك الزحام والصوت
العالي، وكل ما حد يكشر فى وشك قلبك يوجعك وتجيئك
الأزمة إياها اللي كرهت السفر بسببها، وكرهتك بينك
وبين نفسك فى كل اللي زقوك ع الغربية أيامها وزينوها
لك، رغم انك كنت سلطان زمانك.

مشاكلك مع نفسك عمّاله تزيد، وانت خايف من
الجنون، مع إنك قريب منه، وعمال تقاومه بكل الطرق".
وكان الناس فى بهو محطة مصر كتلة واحدة دائرية،
تتراجع إلى الوراء بظهرها، فيتسع مداها لتحوش دخول
عبد المجيد، تحول بين عينيه ولوحة مواعيد القطارات.
ثمّة كائن معلق على عارضة حديدية، من تلك التي
تحمل سقف محطة مصر، تحته مباشرة دائرة من
عساكر تقبض بأياديها على مفروش من المطاط السميك،
الكائن يأتي بحركات بهلوانية، يلف ساقيه حول العارضة
ويدلى نصفه الأعلى ويهزهزه.

الكائن يرتدى قميصًا مفتوح الأزرار.

يشرب سيجارة.

يفرغ منها، ثم يلقي بالفلتر في وسط المفرش.
يمتطي العارضة مثل حمار، ويؤرجح في الفراغ
ساقيه.

يطلق صفيراً متواصلاً من شفثيه ويحث المشاهدين —
المتجمعين تحته — على التردد وراءه بحركات متواصلة
من إحدى يديه.

الكائن يمدد جسده على العارضة وينام، تاركاً عبد
المجيد يحدق فيه.

وكانت امرأة عبد المجيد رسلان في انتظاره، أغلق
باب الشقة وارتكن بظهره إليه.

تتأجج عينيه بالأجساد الطازجة.

تتأجج بالجسد المعلق على عارضة في سقف محطة
مصر.

لم يتناول معها العشاء، لأنه كان راغباً في القيء،
فتناولت عشاءها وأعدت له كوب ينسون، ارتاح بعد
ارتشافه.

ضغط على مفتاح التليفزيون، فتتابعت الصور، ظل
إصبعه يقلب بين القنوات، حتى قر على فيديو كليب

استقدم مخرجه الموديلات المصاحبات للمغنى من بلاد
أوربية عبر شبكة الإنترنت.
وجلس يتفرج.

(مزج إلى)

"ساهر حشيش ونوال فى شوارع القاهرة"

- لم تكن القاهرة جميلة من قبل هكذا.

- لا.. لم تكن.

الشوارع خالية، والسيارات القليلة المتحركة فوق
الأسفلت النظيف تمضى فى حياء، حريصة ألا تחדش
هذا السكون البديع.

لم تكن هناك عين، ولم يك ثمة قلق.

فقط.. كانت القاهرة ببهاثها الساحر الذي لا يعرفه إلا
من خبرها ساعة سحر كهذه.. مدينة عتيقة، صلبة، حوت
فى جوفها عصوراً وناساً ذوبتهم فيها، فراحوا، وبقيت
هي.

126

الناس الآن رهينو البيوت، ماكتون وراء الأبواب
والشبابيك المقفلة فى إحكام مبالغ فيه.

لا.. لم يكن ساهر يتصور أن هذا العملاق يمكن أن

يغفو هكذا، فلا تكون هناك عيون متلصصة توقف الفعل
عن الاكتمال.

— أنت بتضحك قوى كده ليه؟.

— أصلي مبسوط.

— إنت فرحان؟

— لا .. مبسووط.

— عينيك حمرا زى الدم.

— والله!

— رجلك ثقيله قوى.. إنت تعبان؟

— مش عارف.

— اعدل رقبتك شوية.

— أصل الجو جميل.. جميل قوى.

— تعرف لو ماكنتش جيت النهاردة.

عند المغرب استحلفته زوجه ألا يخرج اليوم؛ لأنه

يوافق عيد زواجهما، فنظر إليها ساخرًا وأكمل ملابسه،

فيما راحت يائسة تستكمل حلقات المسلسل التليفزيوني.

إنهما الوحيدان في شوارع لم يبق منها غير هلال
واهمن يختبئ خلف طبقات الضباب، والوجوه الواقفة
خلف النوافذ تشير إلى مروقهما وتحتمي بالظلام، فيما
كانا يفوزان كما لم يفوزا يوم أن دبوا مكاناً لاختلاء
مطمئن، في شقة صديقتها المطلقة، ابنة الرجل الذي قرر
إراحة رأسه بعد عام من الزواج بامرأة، لم تقبل إلا أن
تكون خيوط الحياة في يديها، ولم يعد البيت يشكل له
أكثر من لوكانة يحطّ بها جسده بالليل، ويتركها مع
اشتداد الصباح، بعد أن يخلف مصروف البيت تحت
مخدة كنبه لا تسع أكثر من واحد!

* * *

نزلت دعاء في دار السلام، وأنا تساءلت: هل يمكن
للجسد الريان الجميل أن يمنح بهجة كهذه، أم أن الأمر
رهين بالأقمشة الناعمة والمخملية، بألوانها التي لم تكن
نرها من قبل.. كم عذب الفوشيا من أجيال، وأشعل في
الصدور حكايات، فأسقط رجالاً في هوته، ذهب الفوشيا
إذن وجاء الـ anti fashion.

* * *

أنا كتبت: سهام رمت محمد قابيل بسهامهما وتركته
ينزف في العراء.

ورأيت شيرين في بلاد بعيدة، ولم أكلمها.

ولم أر حامد منذ عودتي إلا مرة واحدة، وكنت قد
عرفت وأنا بعيد أنه: افترق وفتاته.. لم يحك لي ماذا
جرى ولم تك به رغبة، وكلما انحرفت بالكلام نحوها فر
مني، واغتم وجهه، وفي مدينة صغيرة كهذه كان حتمًا
أن أراها، لكنني لم أعثر لها على طرف، كأنها بخار
تبدد، كأنها لم تكن موجودة من الأصل، ماذا جرى بينهما
ليصبح الحال هكذا، كيف انطفأ النور في شباكهما ولم
أعد ألمح حتى خيالها يتحرك خلف الزجاج، فتاة كانت
لها ضفيرة طويلة تتدلى خلف ظهرها، كانت تعيش في
هذا البيت وحدها مع أبيها الذي نذر حياته لها بعد وفاة
أمها، ماذا جرى؟!!

129

وعبد المجيد قال: سوء حظ يصاحبني.. امرأتي
حسود، تحسب المال الآتي آخر الشهر، فيأتي ومعه ما
يكنسه.. تستكثر طعامي فيفرغه جوفي.
وانهار باكيا.

فقال ساهر:

- غير عتبتك!

ثم قال:

- كلما قابلت نوال عرفت الفرق بين امرأة وامرأة.

وقال لعبد المجيد: لا بد أن تحب.

وفي الغرفة المجاورة لغرفتي، مات الليلة جدي.

ماء وضوء العشاء التي حرص عليها في موعدها

ما زال يملأ وجهه القرير نداوة.

أتشبث بكفه، أمسد وجهي بخضرة عروقه التي كانت

نافرة، أبوسها حذراً ألا يطولها ماء حزني، الذي تحرر

وساب في نهير متصل، شق طريقة من باب غرفتي

القديمة إلى حفرة قبره، على جانبيها اصطفت وجوه من

سابقوه، من حملوني بإشاراتهم المكتتزة ورحلوا في

صمت الواصلين، العارفين سكتهم.

مات الليلة جدي.

وعيناى الممثلتان لم تفارقا الباب، وأصوات مغسليه

تتسحب من ورائه، تنقل إلى الوقت البكر المتبقي من

مكوثي قرب غرفة ممثلة بحشجة صوته، وهو يوقظ

صباحاتي البعيدة.

كلهم يعرفون أنى هجرت هذه الغرفة بعد وفاة عمى الأصغر، الذي شاركنيها شهره الأخيرة — إبان خلافه مع زوجته — فكيف وبكل بساطة يقررون هذا؟! أنا الوحيد في العائلة، الذي أملك غير جدي نسخة من مفاتيح البيت، ألمحوا لي عند الفجر أن أسلمها لعمى الأكبر.

سيغلق البيت إذن! ولن تكون هناك بعد اليوم غرفة كهذه.

— إذن قل إلى أين؟! —

لم يكن يسكن البيت غيري وهو، حتى بعد سفري بقيت الغرفة غرفتي.. الغرفة التي انفتح بابها وبان جسده متدثرا بالغياب، والمكتب القديم والكنبة البلادي من وراء المغسلة يبدوان كسحابة مرت مسرعة، والمغسل يستخدم كرسي الشباك ويضع عليه حاجاته.

والطريقة الطويلة في مدخل البيت تبتلع الصوت قبل بلوغه الغرفة.. كانت..

تستصفي صرير بابه المزعج..

كانت..

سكة ظليلة بين ضوء الشارع المباغت ومسقط الضوء
— من فتحة السلم المطلة على السماء — عند الباب..
هكذا رأيت العالم حين لاعبني الاكتئاب، وأشار على
عمى الأصغر بها— الغرفة، فوجدتها فكرة لائقة،
خلصتني من ضيق لم أكن أعرف له سببًا.. الآن أعرف
الأسباب جيدًا.. نعم.. أعرف.

إنه عمى الذي ساعدني في دروس الرياضيات في
الإعدادية، وهي الغرفة التي جاءت لي بالدنيا خالصة،
وحطتها بين كفى.

كان البيت يتباعد من خلف، ونحن نتسابق إلى حمل
النعش، وبين اللحظة وأختها ألقى عليه نظرة، وكلما
احتكت عيني بواحد من أعمامي أرى دموعه تشق
السكة.. السكة التي اصبطفت على جانبيها وجوه من
حملوني بإشاراتهم المكتتزة ورحلوا في صمت الواصلين..
العارفين.

هكذا..

من منطقة بين المرئي واللا.. فرّ مني ما يصلني
بالحاضرين، ما يجعل العين شاخصة بالمكتوب في
سطور اليوم.. بدأ من أطراف القدمين، سرى في
الساقين، الفخذين، أطلقهم مني، قبض على البطن..
رجرج الصدر، كأنني بطائرة حال صعودها. أقفلت
العينين.. اصطكت الأسنان ببعضها، وتلك المضغّة القارّة
بين الضلوع تنتزع، ترتقى طريقاً طالعاً، فسكت شهيقاً
وسقط المحشو بعظم الرأس، سائباً من منخاري.

وكان قد أتانى - آخر الراحلين - محرماً، حدثني
فرحاً عن أصحابه الجدد، وحدثته عن طريق لا
يطاوعني، ولم يقدر يوماً على اجتراح صمتي، فأعطاني
لفة بداخلها ملابس إحرام وباسني مودعاً.

اصطدمت بظهر الكرسي النائي، كهربتني حممة
الحاضرين، جذبتني من صعودي.. دعكت عيني.. لم
أجده بينهم ولم أجد اللفة التي أعطانيها، وكان صوتي لا
يخرج، ولكن داخلي انطوى على نية البحث عنه.

صدر مؤخر عن (أصوات أدبية)

- ٢٦٨- مكاشفات شخصية شعر : بهاء جاهين
٢٦٩- أقانيم قصص : اسماعيل البنهاوى
٢٧٠- مرايا الذات الأخرى رحلة : صبرى حافظ
٢٧١- ديوان غزالى كابتن غزالى
٢٧٢- الصنم رواية : أشرف الخمايسى
٢٧٣- منازل القمر قصص : سمية رمضان
٢٧٤- مواقف البهجة قصص : عزت القمحاوى
٢٧٥- عضم خفيف شعر : سعدنى السلامونى
٢٧٦- حافة الود رواية : نبيل نعيم
٢٧٧- صانع الصدمات قصص : أسامة خليل
٢٧٨- السبعة شعر : عادل عزت
٢٧٩- عشرين سنة على سلم المترو... شعر : حمدى عبد العزيز
٢٨٠- ضرورة الكلب فى المسرحية... شعر : جرجس شكرى
٢٨١- نجع السلعوة رواية : أحمد أبو خنيجر
٢٨٢- طائر الفخار شعر : محمود نسيم
٣٨٣- كائنات هشة لليل رواية : صلاح والى
٢٨٤- قبض الريح قصص : شحاته عزيز جرجس
٢٨٥- أغادر جسدى شعر : أحمد السواركة

- ٢٨٦- بعدين شعر : صلاح الراوى
- ٢٨٧- الوفاة الثانية لرجل الساعات رواية : نورا أمين
- ٢٨٨- عبير الكمنجات شعر : عزت الطيرى
- ٢٨٩- نتهجى الوطن فى النور شعر : سمير الفيل
- ٢٩٠- رائحة النعناع رواية : حسين عبد العليم
- ٢٩١- امرأة يروق لها البحر شعر : عبد الناصر هلال
- ٢٩٢- قوة الحقائق البسيطة شعر : عزت عامر
- ٢٩٣- شهيد الوطن شعر : متولى عبد اللطيف
- ٢٩٤- الكوشة رواية : أمين ريان
- ٢٩٥- عالم تانى شعر : عمرو حسنى
- ٢٩٦- جاليرى يعرض صوراً مسروقة شعر : أحمد مرسى
- ٢٩٧- حديث الحجرات قصص : مجدى حسنين
- ٢٩٨- أبناء الخطأ الرومانسى ياسر شعبان
- ٢٩٩- بيت النجار عبد الحكيم حيدر
- ٣٠٠- موسيقيون لأدوار صغيرة فتحى عبد الله
- ٣٠١- بدرية الاسكندرية حسنى بدوى
- ٣٠٢- المسروق فضاؤه يوسف وهيب
- ٣٠٣- طريق للحفاة محمود قرنى
- ٣٠٤- قبل وبعد توفيق عبد الرحمن
- ٣٠٥- حياة عادية محمد صالح
- ٣٠٦- أحلام بدرية على الشوباشى

- ٣٠٨- الحب والحزن والحنين سامى فريد
- ٣١٢- أحلام محرمة محمود حامد
- ٣١٣- ذلك البيت الذى تنبعث منه الموسيقى رنا عباس
- ٣١٤- إنه الرابع من آل مستجاب محمد مستجاب
- ٣١٥- العصافير تنفض أغلالها حسن فتح الباب
- ٣١٦- عشاء برفقة عائشة محمد المنسى قنديل
- ٣١٧- أقاليم اللهب ومرايا القلب الأخضر محمد الشهاوى
- ٣١٨- جليس مختضر فريد أبو سعدة
- ٣١٩- ١٩٩٩ شعبان يوسف
- ٣٢٠- رسام الأرناب أحمد الشيخ
- ٣٢١- طريق الحرير يسرى خميس
- ٣٢٢- كنز الدخان فخرى لبيب
- ٣٢٣- نعم.. أنا لص مختار العطار
- ٣٢٤- الوقوف على الأعتاب يحيى شرباش
- ٣٢٤- الوقوف على الأعتاب يحيى شرباش
- ٣٢٥- كأعمدة الصواري سمير درويش
- ٣٢٦- شباك مظلم فى بناية جانبية فؤاد مرسى

الحلم صار بسنتاً، على صدرها
ترسو وردة الوقت، وأنت الملدوغ
بالعيب واللا يصح وعشرة أرفف
مملوءة بتاريخ الإنسانية، وسيدة
الدار صامتة، فضحتها مشاكلة
ادعتها بهتاناً، فأقامت ودها مع قائمة
منقولات سودتها أصابع خبيرة
بتاريخ النذالة، بعرض صفحتي
فلوسكاب، فقلت: للمرأة مملكتها.



جنيه واحد

الأمانة العامة للنشر

stx
2,736
475s
h
3



0534925